الجزء الاول — الثمن ٣٠ مليما

الديوان

كتاب في النقد والادب

يتم في عشرة أجزاء

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد — محرر بجريدة الاهرام

و

ابراهيم عبد القادر المازني — محرر بجريدة الاخبار

الطبعة الثانية

يطلب من مكتبة السعادة باول شارع درب الجماميز

من جهة باب الخلق بمصر

ابريل سنة ١٩٢١

فهـــرس

صفحة		
١	مقدمة	
٣	شوقى فى الميزان	
	توطئة	
٩	رثاء فريد	بقلم عباس محمود العقاد
٢٢	رثاء عثمن غالب	
٣٠	استقبال أعضاء الوفد	
٣٨	النشيد	
٤٦	النشيد القومى	لعبد الرحمن صدقى
٤٨	صنم الالاعيب	بقلم ابرهيم عبدالقادر المازنى

مقدمة

بسم الله نبتدئ (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض فى أحاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعى اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة في أصوله وفنونه . أخصها الامل فى تقدمه ، لالتفات الاذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس ، لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلل الاقلام المغموزة والمآرب المتهمة الى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل ، وتوقى تلك العلل . وهو كتاب يتم فى عشرة أجزاء . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة . وقد سمع الناس كثيراً عن هذا المذهب فى بضع السنوات الاخيرة ورأوا بعض آثاره وتهيأت الاذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب فى أجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو أن نكون فيه موفقين الى الافادة ، مسددين الى الغاية . وأوجز ما نصف به عملنا ـ ان افلحنا فيه ـ انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، وأقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصرى غربي : انسانى لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصاً من تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه

من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لان دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لان لغته العربية ، فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت فى لغة العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن أدبنا الموروث فى أعم مظاهره الا عربياً بحتاً يدير بصره الى عصر الجاهلية

وقد مضى التاريخ بسرعة لاتتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيدة أصناما عبدت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحاً أوجب وأيسر من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه فى جميع حالاته ، فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للادب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لاقدارها. فان أصبنا الهدف والا فلا أسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بياناً ؟

شوقي في الميزان

توطئة

كنا نسمع الضجة التى يقيمها شوقي حول اسمه فى كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات فى البلد ، لا استضخاما لشهرته ولا لمنعة فى أدبه عن النقد ، فان أدب شوقي ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه فى اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففاً عن شهرة يزحف اليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طى الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئا لسبب يقنعهم لم يبالوا أن يطبق الملأ الاعلى والملأ الاسفل على تبجيله والتنويه به فلا يغنينا من شوقي وضجته أن يكون لهما فى كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغداً لولا أن الحرص المقيت أو الوجل علي شهرته المصطنعة تصرف به تصرفاً يستثير الحاسة الاخلاقية من كل انسان وذهب به مذهبا تعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب أن لافرق بين الاعلان عن سلعة فى السوق والارتقاء الى أعلا مقاوم السمعة الادبية والحياة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة أن يشترى ألسنة السفهاء ويكم أفواههم ، فاذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول والزمور فى مناسبة وغير مناسبة وبحق أو بغير حق فقد تبوأ مقعد المجد وتسنم عقوة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الافهام والضمائر ، وسحقا للمقدرة والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل والحياء ، فان المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن فى الخزانة . وهل للناس عقول ؟ ؟

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقي ممن لا يمدح الناس الا مأجوراً . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق المنتنة نعنى بها بعض الصحف

الاسبوعية . وعرف من لم يعرف انها ماخلقت الا لثلب الاعراض والتسول بالمدح والذم وأن ليس للحشرات الآدمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء وذوى المآرب والحزازات . خبزمسموم تستمرئه تلك الجيف التى تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الارض . فى بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جوعاً أو تواروا عن العيون • هذه الصحف الاسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق أصحابها تكيل المدح جزافا لشوقي فى كل عدد من أعدادها ، وهي لاتنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة نؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل الاسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة جديدة والا فالقصائد القديمة المنسية فى بطون الصحف ، وان لم يكن شعر حديث ولا قديم فالكرم والاريحية والفضل واللوذعية ، وان ضاقت أبواب الدعاء والاطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال عليه بالشتم ويعير بالتقصير عن قدر شوقي والتخلف عن شأوه • وهكذا حتى برح الخفاء وانهتكت الدسيسة • والعجب ان يتكرر هذا يوما بعد يوم ويبقى فى غمار الناس من يحتاج الى ان يفهم كيف يحتال شوقي وزمرته على شهرتهم ومن أى ريح نفخت هذه الطبول

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ، ويعلمون أنها آفة وأى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقيمها وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصري وصمة ، الا شوقى • فانه يعتدها آلة شرف وأحدوثة حسنة فهو يغمس نفسه فى تقريظها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى ان ينصب هجاجات من أوباشها للتكريم بين الناس • ولو عمدة قرية فى مثل ثروته بصر به يمد يده بالسلام الخفى لأولئك الاوباش فى خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزى لها ويود ان تكتم عليه . ونقول في مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية وشمم أفذاذ العبقرية • فأما ان تكرم البطالة كما تكرم جلائل الاعمال ، وان يدعي الناس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروءة وان يتنادي الي الاحتفاء بناهشي الاعراض كما

يحتفى بمهذبى الارواح وهداة العقول ، وان يؤيد نفاية المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور ، فتلك الهاوية التى لايبدو قرارها . . . ووا خجلة مصر ! ! من الذي يصنع ذلك فيها ؟ ؟ شعراؤها ـ الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الاعلى وطلاب الكمال الأسمى ، لا يرضون بما دون غاية الغايات مطمحا لاعجابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعد رفق السجانين بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزءا . . . ألا انه والله للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقى بجمهوره واستخف واستخف حتى لامزيد . ما كفاه ان يسخر الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدي بيده أجرة سوقه واختلاسه . وأقسم لو فعلها رجل فى أوربا لما قدر ان يمكث بعدها أسبوعا واحدا فى بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مغبتها أدبا زاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شىء ولا يؤنف فيه من شىء ، ولا يصد المرء ان يخلع فيه عاريا الا اتقاء طوارىء الجو وعوارض الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة

ان امرءاً تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى م يستنكف فى سبيل بغيته وأى باب لا يطرقه تقرباً الى طلبته . والحقيقة أن تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد به كل مورد وأذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحاً للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم . نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد فى مركز أمكنه من قضاء هذه اللبانة اذ كان أشبه بملحق أدبي فى بلاط أمير مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل عليه بالتقريظ والتهليل وتتحاشى أن توسع صفحاتها لنقده كما توسعها لنقد غيره . وأنت اذا قلبت الصحف القديمة رأيت

فيها مئات المقالات فى نقد الادباء المشهورين كتاباً كانوا أو شعراء ولا ترى اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها • واستثن مقالتين أو ثلاثا بدأ بها المويلحى نقده فى صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ، وهذا أدعى الى الريبة ، وكان فى أمانة شوقى وموظفين آخرين بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والادباء فكان شوقى يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالادب ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه فى الصحف ويلغطوا فى المجالس بتفضيله وتقديمه • ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحداً واحداً وأكثرهم أحياء يرزقون • أضف الى هؤلاء من يمدحونه لمشاركتهم اياه فى العادات الخصوصية والمنادمات الليلية ، وهم غير قليل ، ومن اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والالقاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك : أولهم محمود سامى باشا البارودي (لأنه باشا عتيق) وثانيهم اسماعيل صبري باشا (لانه أحدث عهداً بالباشوية والوزارة) وثالثهم أحمد شوقى بك (لانه بك متميز) ورابعهم حافظ بك ابراهيم (لانه أحرز الرتبة أخيرا) ويلى ذلك خليل افندى مطران (لانه حامل نيشان) فطائفة الافندية والمشائخ وهلم جرا كانما يرتبونهم فى ديوان التشريفات لا فى ديوان الآداب ! ! ! فبذلك وما شاكله اعتاد الناس ان يسمعوا أسيم شوقى مشفوعا بافخم الالقاب غارقا فى صيغ الاطناب والاعجاب . وكأنه يخشى ان ينسى الجمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه الا ان تكرر تلك الصيغ فى كل مرة يذكر فيها اسمه . ففى كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء وسيد الادباء ، وليت شعرى ما ضرورة هذا التكرار كله ان كان مفهوما بذاته ؟ ؟ ولما رسخت هذه الالقاب المأجورة صدقها العامة وأشباه العامة ومن يجاملون السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها — ولم لا يصدقونها ويرددونها وأكثرهم لا يعنى من الادب بكثير ولا قليل ، وجلهم انما يعرفه بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟؟ فان كان فى الامر موضع للعجب فهو أن تسمع ثناء متكررا ولا تسمع نقدا — مع ان الاغراق فى الثناء

احجى ان يغوى بالمنافسة ويكثر من النقاد • ومتى علمت علة السكوت فقد زال موضع العجب

وأظن السن قد فعلت فعلها فى نفس هذا المعذب بمرض الصيت فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فأصبح لا يقنعه ان يعلل بالدهان ، ويؤكد له التفرد والرجحان، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ، فلا يروى لاحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن الى شهرته شهرة • والا فعقوبة من يرتكب جريمة الاجادة معروفة !! وما أطول عذابه ان لج به هذا الوسواس!! وان المحنة لتستدر الرحمة ولكن ارحم الناس خليق ان يضحك ممن يخال انه يعقم بطن الطبيعة ويسد الآذان ويضيق رحب الفضاء بالاجرة

ولو شئنا لاتخذنا من كف شوقى بتواتر المدح دليلا على جهله باطوار النفوس فان الاذان أشد ما تكون استعدادا لقبول الذم اذا شبعت من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النغمة • واذا تعود الناس ان يسمعوا ضربا واحدا من الكلام عن انسان تاقوا الى سماع كلام عنه من ضرب آخر • ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة وأكبر ذنبه عندها انها أفرطت فى محاباته ، فهل يدرى شوقى أنه يؤجر أذنابه على النيل منه حين يبذل الاجر على المبالغة فى مدحه ؟؟ انه لا يدرى ولا يبرئ المريض أن يدرى بدائه وعلى نفسها جنت براقش ، فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن أسلحتهم ونضطرهم الى العدول عن أساليبهم المستهجنة يأساً من صلاحها فى هذه الايام • اذ يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس اقدارهم الا ريثما تنكشف أسرارهم • ونقول لشوقى أن سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكربه أن يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا أبرد عليها وغرة قيظها • وانه ليلذ لنا أن نكون نحن

حربه وبلاءه وأن نستطيع الا دالة للحق من الباطل فى غرض من الاغراض فانها لذة نادرة فى هذا العالم

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان أبلغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا، وأضر مايكون اذا كان متخذاً نموذجا للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الامر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن انها قصيدة رديئة فان الذوق والتمييز اذا اختلا لم يكن اختلالهما فى الادب وحده . وأنت اذا استطعت ان تهدى الطبقة المتأدبة من أمة الى القياس الصحيح فى تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح فى كل شئ ومنحتهم ما لا مزيد لمانح عليه . وان الامم تختلف ما تختلف فى الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها أجمعه الى فرق واحد : هو الفرق فى الحالة النفسية أو بالحرى الفرق فى الشعور وفى صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها فكرا وقولا أو صناعة وعملا . فليس اصلاح نماذج الآداب بالامر المحدود أو القاصر على القشور ولكنه من أعم أنواع الاصلاح وأعمقها . وسنتناول شعر شوقى قصيدة قصيدة أو معني معنى حتى نتبين الأثر جليا فى تحول الآراء وسلامة القياس . وسيرى القراءا ننا نغاظ له البلاغ ونصخه صخاشديدا • وكذلك ينبغى أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالعقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الافواه وتسخير المأجورين • على اننا لا نحتاج ان نقول ان ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفى غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارئ ليقتنع بما نقول فاننا لا نسأل أحدا اقتناعه • ومن كان يحتكم برأيه الى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا ان نوجه لمثلة كلاما•

وانا لبادئون :—

رثاء فريد

أصاب شوقي حين قال ان قصيدته في رثاء فريد من خيرة قصائده . فانها في مستوى أحسن شعره الاول والاخير ، وهى صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لمتف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجراً في بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذى كان يشتهر به الشاعر فى تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضى عهد ركاكة فى الاسلوب وتعثر فى الصياغة تنبوبه الاذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق الى جملة مستوية النسق أو بيت سائغ الجرس فيسير مسير الامثال وتستعذبه الافواه لسهولة مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف وتراصف الكلمات ومرونة اللفظ أصعب مايعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الاساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة — فاذا قيل ان هذه القصيدة يتلوها القارئ « كالماء الجارى » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . واذا اشتهر شاعر بالاجادة فليس للاجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوى الحلو » وهذه هى قدرة شوقي التى مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هى مزية قصيدته فى رثاء فريد وفى أحسن قصائده

مضي الجيل الفائت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة وأخرجت المطابع مئات الكتب التى صاغها أقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الاسفار الافرنجية أو اطلع عليها الناشئة في لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفني أو الادبي . وسهلت الاساليب لكثرة ماوردت على الاسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارئ أن يبحث عن المعنى

بل لايكفى القارئ المطلع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله . فمزية شوقي عند هذا الجيل الناشئ من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لتبحث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقى اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لهارنة ذلك الصدى، وطفق أذكياء القراء يمرون بشعره الاخير قصيدة في ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره، اغتراراً بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا أصاب شوقى » ؟ ؟ ويغالط قراؤه الاقدمون أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيراً من هذا الشعر ، وقد يعزون الاختلاف الى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون به على الذكرى وحديثه الذى يغضبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون — لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقى الأمس هو شوقى اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا

نعم تغير جلة القراء فأصبح لايرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولاعجب في ذلك ولا في بقائهم على احلال شوقى محله الاول مع انحدار شعره في نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعادة التى لم تتغير منذ قدروه للمرة الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمد شوقى في مكانه لانه جعل اطراء الناس غايته فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطاً للنمو . ثم لاتنس ان القارئ يرتقى في الاختيار أضعاف مايرتقى الشاعر في الاداء والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الاربعين فان أخصب أيام الشعر أيام الشباب . واذا ارتقى فانما يكون ذلك باحتثاث الطبع وادمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من الناس داعياً الى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة لايتعدى كتب القصص والنوادر

وقد أحس شوقى بالتغير من حوله فآده أن يستدركه وأعيته الزيادة في سن التقهقر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزاد ترويج السلعة كلما خيف عليها الكساد

ولما سئل عن غرضه من قصيدته في فريد وقرئ له في نقدها مالا يحب بهت على ماسمعت وقال : تلك قصيدة أردت بها الكلام في فلسفة الموت . . .

فلننظر اذن فلسفة الموت التى استنبطتها حكمة شوقى :

***

تعود أيها القارئ الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين الا كل ماهو أخس من بضاعتهم وأبخس من فلسفتهم — كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز اذ ينادون فى الازقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ، الذى عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئاً التقاه » الخ الخ

تلك أقوال الشحاذين وهذه أقوال (أمير) الشعراء

كل حي على المنية غاد تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الاولون قرناً فقرناً لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم غير باقى مآثر وأيادى

الخ الخ

وما خلا هذه العظات مما نحافيه فيلسوف الموت منحى الابتكار ونزع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه أحط من ذلك معدناً وأقل طائلا وأفشل مضموناً . والجيد منه لايعدو أن يكون من حقائق التمرينات الابتدائية « كالزبيب من العنب و ٢ + ٢ = ٤ » وهلم جرا . وأكثره أتفه من هذه الطبقة فالقصيدة اما بيت حذفه واثباته سواء أو بيت حذفه أفضل ، مثل أخباره بأن جر النعش في مركبة أو حمله على الرقاب سواء

لا وراء الجياد زيدت جلالا منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذي ما أحسب أحداً يمر بقبر فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيبة في نفسه هزؤا وعبثا . وذلك حيث يقول

كل قبر من جانب القفر يبدو علم الحق أو منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقى الاخروية : « انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتي الى طريق الآخرة لئلا يضل أحدهم النهج أو يصطدم بصخرة فى دروب الموت!! » ومثل تحذيره الناس من تربص الاجل بهم ايقاظاً ونياماً كأنما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهوة

وعلى نائم وسهران فيها أجل لاينام بالمرصاد

ومثل تيئيسه من رجعة الميت الى أهله وتخطئته الذين يزعمون غير هذا الرغم يقول ذلك بلهجة العارف لمايجهله غيره كأنها مسألة خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها أحزاب الفلسفة ولم يفرغ الناس يوما من بحثها وتقليب وجوهها والتنقيب عن أسانيدها وشواهدها حتى جاء شوقى ففض الخلاف ببيتيه هذين

سر مع العمر حيث شئت تؤبن وأفقد العمر لاتؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذي زعموه في قديم من الحديث معاد

ولاغرو فقد كان أهل الميت اذا مات فى برلين أو لندن أو الهند لايزالون يترجون يوم أوبته ويعدون أيام غربته ، وكان العلماء في كل قطر وبلد يتساءلون أفمن مات غريباً عن دياره أيؤب الى أهله يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتعا بالعافية أو لايؤب ؟ ؟ فكان فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » الى ان جاء شوقى فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا يؤب » فانحسم الاشكال وقطعت جهيزة كل خطيب:

قال ناقد أديب: ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه قائل المثل العامي « اعطنى عمرا وارمنى في البحر » وانه كان أسوأ منه تعبيراً وأقل ظرفاً اذ يخاطب القارئ بقوله « أفقد العمر » وذلك العامي يتلطف ان يجبه الناس بهذا الخطاب ونقول : ان توارد الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فان من يتجشم لاجل الانسانية أن يغوص على هذه المسائل العويصة ويسهر الليالي في فض مغاليقها وحل مشكلاتها لحقيق بأن يتجاوز له الناس عن حسن المخاطبة ولا يكلفوه ان يؤبه لمثل هذه الهنات ! !

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل أبيات شوقى التى لم يرد فى فلسفة الشحاذين مثلها — فمن هـذه الابيات نبأ عجيب فحواه ان فى العالمين نعشا واحـدا تنقلهم أعواده من عهد عاد

تستريح المطى يوما وهذى تنقل العالمين من عهد عاد

فان لم يكن يعني هذا ويزعم ان الامم لا تملك منذ وجدت غير نعش واحد تنقل عليـه موتاها فسبحان من يعلم مراده. والا فان كان يعني ان هذه الخشبة التى ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى وتجدد فأى شىء لا يمكن ان يقال فيه ذلك ؟؟ أية مطيـة لا تنقل العالمين من عهد عاد كما ينقلهـم النعش ، وما بال أى انسان لا يقول اليوم أو بعـد مائة جيـل انه ركب مركبة فرعون ونام على سرير قيصر ؟ ؟ ويقول :

كرة الارض كم رمت صولجانا وطوت من مـلاعب وجياد

شاعر عصرى ولا شك ! ! ألا تراه يدين بكروية الارض ؟ ؟ ولـكننا نخشى أن لا يكون شوقى قـد ذكر الـكرة الا ليذكر بعـدها الصولجان والملاعب والجيـاد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منـه ، فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟ ؟ ان الحقائق الخـالدة لا تتعلق بلفظ أو لغـة لانها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها . وأنت اذا نقلت هذا البيت الى أية لغـة لم يكن معناه الا هكذا : « هذه الغـبراء أسقطت من أيدى الملوك قضـبا كثيرة ودثرت ميادين لاعداد لهـا من ميادين السباق وأبادت خيـلا لاتحصى » — فما أشبه الحـكماء بالمغرورين ان كانت ثرثرة كهذه نقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة

ويقول

تطلع الشمس حيث تطلع نضجا وتنحى لمنجـل حصـاد
تلك حمـراء فى السماء وهـذا أعوج النصل من مراس الجلاد

اليوم لا تخشى بغتة الاجل فى كل حين ! ! فالشمس لا تضرج بدم قتلاه

الا حيث تطلع صبحا (أى حين تطلع حمراء وفى السماء أما أن طلعت فى الارض فهذا شىء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا الا فى أيام الهلة أو المحاق وفيما عدا هذه الاوقات لا قتل ولا حصاد ، فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا تصدقوه فان موته باطل . . .

ألا أن شعرا يسف الى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب الازغل الصناعة لاجزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كأن الاشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكأن الناس فقدوا قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو أعوج معقوف فطلبوا له شبها ، وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسي ، لانه لن يهرب يوما فنقتفى أثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه ، وان كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يبثه فى نفوسنا من حنين أو وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم هو كالخلخال ثم رأوا أن لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشببوا بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الاوهام . وأفتن قوم فقالوا هو كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز

أنظر الى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟ ؟ هذر فى هذر . وجاء شوقى فقال انه منجل يحصد الاعمار فاخطأ حتى التشبيه الحسي لان الاعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب ، وأما فى سائر الايام فلا يكون القمر

منجلا في شكل ولا فى حقيقة • فما المراد بكلامه ؟ ؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الارض :

والغبار الذى على صفحتيها دوران الرحى على الاجساد

وذلك من قول أبي العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الاعمار بالطحن ولا بأس بهذا التمثيل ، واقترض للطحن رحى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده الاستطراد ، فعز على شوقى الا أن يكون لهذا الطحين غبار وأن يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحى . عند هذا يركد العقل ويجم الكلام

ولم أفهم البيتين الآتيين بعد قوله « تلك حمراء فى السماء الخ »

ليت شعرى تعمدا وأصرا أم أعانا جناية الميلاد

كذب الازهران ما الامر الا قدر رائح بما شاء غاد

يعنى الشمس والقمر • فما التعمد والاصرار وما اعانة جناية الميلاد وما الفرق بينهما ؟ ؟ أيريد ان يطبق على الازهرين المادة القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق اصرار ؟ ؟ وفيم كذبا وكيف يكون جريان الشمس والقمر فى حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما نفيا للقدر الرائح الغادى ؟ ؟ وهل التعمد والاصرار واعانة الميلاد الارواح القدر وغدوه بما يشاء ؟ ؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم فى ذلك على شاعر الانس والجن فاعل هذه من أبياته التى صنعها لاخواننا الجن واختصهم بها دوننا

ويقول فى نعش فريد أو حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لها الزمام لجاءت وحدها بالشهيد دار الرشاد

أما دار الرشاد فهى مصر كما أرادت القافية لا كما أراد شوقى ولا كما أراد التاريخ والاثر • وأما معنى البيت فيقول شوقى ان نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسعى وحده الى مصر ! ! فلله ما أقدر رائى الشموس على احالة الجليل

مضحكا والتقديس زراية : نعش يسعى وحده فى البرور والبحار ويجوس خلال المدائن والديار ، يعتدل وينعطف ، ويمضى ويقف ، حتى يستقر ملهما عند قبره ، جاداً لا يلوى على شيء قبل بلوغه ، والناس متنحون عن طريقه ، تاركيه يتهدى لطيته .. أفمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والاجلال ؟ ؟ الاساء ما أصاب ذكرى الرجل من اجلال شوقى . أراد أن يقول كما قال البحترى :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى اليك المنبر

فكبا كبوة حاطمة

ولقد طمح شوقى الى معارضة المعرى فى قصيدة من غرر شعره لم ينظم مثلها فى لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا فى شعر العرب على خير منها فى موضوعها . والمعرى رجل تيمم هذه الحياة محراباً واجتواها غابا وصدف عنها سراباً — لابس منها خفايا أسرارها ، واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غوابر آثارها ، وحواضر أطوارها . فاذا هو نظم فى فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله وتلك سبيله . وأين شوقى من هذا المقام ؟ ؟ انه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره وأعمق ما هبط الى نفسه من آلامها اعراضة أمير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر فى فلسفة الموت والحياة

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا نكبر قصيدة المعرى تعصبا للقديم وايثاراً للعرب على العجم نلقى اليه ها هنا درسا فى الشعر قد ينفعه

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر الاشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها . وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وانما مزيته ان يقول ماهو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من القصيد ان يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع وانما همهم ان يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم فى نفس اخوانه زبدة مارآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . واذا كان كذلك من التشبيه ان تذكر شيئا أحمر ثم تذكر

شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما زدت على ان ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه ان تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الاشكال والالوان فان الناس جميعاً يرون الاشكال والالوان محسوسة بذاتها كما تراها وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الاشكال والالوان من نفس الى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لانغيره كان كلامه مطربا مؤثرا وكانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه لانه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر مايضيء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على الوجدان مايصفه فيزيد الموصوف وجودا ان صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان احساسا بوجوده وصفوة القول ان المحك الذى لايخطىء فى نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره : فان كان لايرجع الى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وان كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود اليه المحسوسات كما تعود الاغذية الى الدم ونفحات الزهر الى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهناك ماهو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما أخال غيره كلاماً أشرف منه بكم الحيوان الأعجم

فان تبين لك ماتقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى التى اجترأت على معارضتها

نظر المعرى الى سر الموت فلم يره فى مظهره الضيق القريب ، حادثاً متكرراً تختم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة العميمة . رآه كما بدا منذ القدم لبدائه الحكماء وأصحاب الاديان ، وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس ومانى : حرباً سرمدية قائمة بين قوتين خفيفتين ميدانهما كل نفس حية وكل ذرة فى طباق الارضين وأجواز السماوات ـ هاتان القوتان هما الخير والشر أوهما النور والظلام

أوهما الحق والباطل أوهما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لاتغفل ، وأعوان لاتني تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ونتشهدنها اليوم وغدا ، وتتشهدنها الى ختام الزمان ان كان للزمان ختام

نظر المعرى الى العالم الارضى فلم يكن سرير محتضر مارأى ، ولانحبا مقضيا ماأحس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائماً فى كل كيان قائم ، متقادما فى كل ركن متقادم :

كل بيت لهدم ماتبتنى الور قاء والسيد الرفيع العماد

وعلم ان القوتين اللتين هذا أثر نضالهما فى الارض فاعلتان هذا الفعل لامحالة فى أشرف كواكب السماء وأسناها ، وأضوأ عوالم النور وأذكاها .

زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حدثان الد هر معلف وان عاث فى اتقاد
والثريا رهينة بافتراق الشـ ـمل حتى تعد فى الافراد

لابل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين متلاحقين فى كل حال واللبيب اللبيب من ليس يغتـ ـر بكون مصيره للفساد

وكانت العبرة التى استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمد ، فوق أفراح الانسان وأحزانه . ولو نطق الابد لماتكلم بغير قوله :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى اذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد

واذا ذكر متاعب الحياة فكأنما يذكرها ليصرفها عنه بنظرة القانط المستخف فيقول :

تعب كلها الحياة فما أعجـ ـب الا من راغب فى ازدياد

---

(١) الكون هنا وفى البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم

أن حزنا فى ساعةالموت اضعا ف سرور في ساعة الميلاد
أسف غير نافع واجتهاد لايؤدى الى غناء اجتهاد

كذلك كان احساس المعرى بسرالموت ، وهوأوسع احساس قدرلبشرى أن يحسه من ذلك السرالرهيب

أما أنت فقد نظرت فماذا رأيت ؟ ؟ لعلك أدرى بماتنظر وترى ولكنانقول لك مالست تدريه . انك لمترشيئاً يحتاج الناظر فىرؤيته الى غير الحواس ـ انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد » حيث يسوى المعرى بين وكرالورقاءومعاقل العظماء و بين منازل الارض ودارات السماء . أردت أن تعمم كما عمم ففاتك مغزى تعميمه وجئت بكلام لانباب له ولا ترضى قشوره . اذماعلمنا بين الحضر والبدو من فرق فى التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما فى حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادي لان أحدهما قد يسمع ماليس يسمعه الآخر لتباعد الدار أو انقطاع الاخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادى لمثل هذا السبب . وأما قولك يموت من فى الحاضرة والبادية فكعدك الناس اسما اسما وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى أنه لوصح أن يقال هذا فأى فضل فيه لغير الحواس وأي دليل فيه على اللب الحكيم والطبع القويم ؟ ؟ وتقول فى القبر أنه منار المعاد

وزمام الركاب من كل فج ومحط الرحال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق فى هذا الحكم ؟ ؟ وتقول

وعلى نائم وسهران منها قدر لاينام بالمرصاد

وهذا كذاك بل أضعف أما قولك .

لبد ساقه الردى وأظن الذ سر من سهمه على ميعاد

فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة

واذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمدنا الى مقارنة الابيات المتشابهة فى القصيدتين ألفيناك تخطئ فى كل بيت تسرقه من المعرى ، أوتأتى بالبهرج من حيث أتي هو بالذهب

المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الاضداد
ودفين على بقايا دفين فى طويل الازمان والآباد

وليس أجل ولا أصدق من هذا الشعر . وأن تعبيره عن تعاقب الدفين بعد الدفين فى الموضع الواحد بتزاحم الاضداد وقوله ان اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان فى وصف تحكم الموت بالاحياء وعبث التزاحم على الحياة • ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحاكى هذه المعجزة البيانية بقولك

هل ترى كالتراب أحسن عدلا وقياما على حقوق العباد
نزل الاقوياء فيه على الضعـ فى وحمل الملوك بالزهاد
صفحات نقية كقلوب الر سل مغسولة من الاحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم أحسن صيانة لانه يبيدهم جميعاً !! فبحقك ياهذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟ ؟ وما الذى لقيه أضعف العباد من أقوامهم وأظلمهم أشد من هذا الانصاف والصيانة ؟ ؟ ويخيل اليك أنك أبدعت حين قلت أن الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى أن الزهاد لايستضيفون الملوك فيه على السواء ؟ ؟ فان كنت لاتعنى ذلك فقد قلت ماتعلم انه خطأ وقلته لغير غرض ـ أما المعرى فقد أحاط بهذا المعنى فلم يخسر شيأ من الصدق أو بلاغة الاسلوب حين قال

وعزيز على خلط الليالى رم أقدامكم برم الهوادى

وهذه هى البلاغة الجادة التى لالعب فيها

وعندك ان طهارة القلب هى موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيا مغسولا كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب أن لاتزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟ ؟

يقول المعرى

خفف الوطء ماأظن أديم الأ رض الا من هذه الاجساد

وأنت تقول

والغبار الذى على صفحتيها دوران الرحى على الاجساد

المعرى يسأل

أبكت تلكم الحمامةأم غنت على فرع غصنها المياد

وأنت تأبى أن لاتكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكى فتقول

ضاق عن ثكلها البكى فتغنت رب ثكل سمعته من شاد

ثم يروقك وأنت تبارى المعرى مباراة المضحكين انتزعم لناجيتك ولنفسك انك نظمت فى فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة فى آية من آياته ! !

على انك قد تعذر بعض العذر فى قصورك من هذه الناحية لانك مجبر فيه لامخير . أما الامر الذى لانعلم لك منه عذرا فأن ترثى رجلا كفريد بقصيدة لايرد فيها اسمه ولاسيرته الاعرضا ، وان لايخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس . ولوكان ذاك لضيق فى مضطرب القول أولنقص فى بواعث الاسى على الرجل لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم ان مصر الحديثة لم تنجب من دعاتها رجلا لقى فى حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن ويطيل مدد الرثاء بعض مالقيه فريد . فتهاونك فى قضاء حقه وتوفية قدره لايكون الا لعجز أوكنود. فان لم يكن هذا ولا ذاك فلأحنة لاتزال تغلى فى نفسك على الرجل بعد موته . وأنت بأسبابها أعلم

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقذع فى الهجاء ، أو ينوى الذم فيأتى بما ليس يفهم منه غير الثناء . وأشد من ذلك ايغالا فى سقم الذوق وتغلغلا فى رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو فى موقف التأبين والرثاء ، والعبرة بانفناء

ولست أدرى أى ماجن من نظامينا قال هذا البيت فى رثاء أحدى القيان :

رحمة العود والكمنجا عليها وصلاة المزمار والقانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهما سمح منه الهذر فى مثل هذا الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بفن الغناء واقدار ذويه — أسلم ذوقا فى بيته هذا من شوقى فى رثائه لعثمان غالب . لانه تعمد الهزل فقاله وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء .

ضجت لمصرع غالب فى الارض (مملكة النبات)
أمست (بتيجان) عليـ ه من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لغيـ بته وأقعدت الجهات ! !!
فى مأتم تلقى الطبيـ عة فيه بين النائحات
وترى (نجوم الارض) من جزع موائد كاسفات
والزهر فى أكمامه يبكى بدمع الغاديات
حبست أقاحى الربى والعهد فيها مومضات ! !
وشقائق النعمان آ بت بالخدود مخمشات

بل مما لامراء فيه ان صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء وبر بوعده لنفسه واغتبط بما دب عليه من المعانى الدقيقة والنكات الانيقة . . . . . لانه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو فى غير موضعها ، ولعمرى كيف يكون

شاعرا من لا يذكر الزهر أو الثمر كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . يذكرهما فى غضبه ورضاه ، وفى لهوه وبلواه ، وفى فرحه وبكاه ، وفى غيظه وهواه ، وفى يقظته وكراه — ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينة الآهلة ، وحين يروى عن النعمة السابغة أو يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مدلها بفتن الجمال من اذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقل انها صفراء كالاقحوانة ، أو المتميز من الحنق لم يحسب انه يتفلق كما تتفلق الرمانة ، أو المتدلى من المشنقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، أو قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة ! ! وشوقى لم يوف هذا الفرض نحسب بل أرانا أن الازهار لاتجرى على سنن الجاملة فى النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هى غرس يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . فلو رفعت البلاد مثلا بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة ان تذيل دمعة أسفا نفرقته وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والذوق المليح فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمود الهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمرار النحاس احتقانا ، ولين القصدير ذوبانا ، الى آخر ما هنا لك من الوان العذاب التى تلم بالمعادن الصلاب — ولو كانت النكبة فى عالم « جيولوجى » لما قال شيئا من ذلك بل كان يقول (مثلا) ان الطبقة الرملية فى ناحية كذا تحثو التراب على رأسها فزعا ورعبا ، وان الطبقة الجيرية فى موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وان هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الارض أو تزلزل بها الكمد وناهيك ما كان يقوله لو نفذ القضاء فى شاعر جليل فانه أبقاه الله لن يقنع بأقل من الحاق الزحاف والاقواء والخبن والسناد وسائر عالل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذى الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون ، وأى تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر الندابة فى صهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب ونقيق الضفادع لو كان العالم المفقود من

علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟ ؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه فاننا ان احتملنا حداد الالوان والاشكال فلن نطيق الصبر على حداد الاصوات والاقوال

ولكن وا أسفاه ! ! لابد من التضحية ، لابد من الفقدان والخسارة فى هذه الدنيا الفانية ! ! وليس من السهل ان يقول الانسان ان الاشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات البست التى ما برحت قاعدة فى مكانها منذ الازل ، ولا من الهين ان يحشر الطبيعة « لا اكثر » في مأتم تكون فيه احدى النائحات « فقط » ولا من اللعب ان يصل في كل ساعة الى ابكاء الرياحين والازهار والمعادن والاحجار -- ولا سيما النفيسة منها — كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل . ولكى يقول الرجل الفانى منا هذا القول ويهبط الى قرار هذه المعانى العميقة ، لاغنى له عن التضحية بالذوق السليم والوصف الصادق والتخيل الصحيح والشعر الجدى والشعور القوى ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنه فما نأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولا مبالاة . . . تقول ولكنه مع ذلك كان سخيفا غثا ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . . وتقول هذا صحيح ولكنه قال ما أراد أن يقول وتفنن وروى . أجل ! ! انه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذى يرثيه أولئك السذج البلهاء ، الذين يحسبون ان الاخصائيين اذا ماتوا جمعوا أحدا غير المواد التى تفرغوا لدرسها وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا أودى احد أولئك الاخصائيين أسفوا ووصفوا أسفهم هم عليه (مباشرة) ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب السحاب تارة أخرى ، أو يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها وأمواتها وأحيائها ويجعلوا النفس الانسانية أو نفس المصاب بالبلية ، آخر من يحس فى هذا الكون بفقد عزيز ! !

ولقد كنا نود أن نقف عند هذا الحد فى الابانة عن براعة شوقى وافتنانه ،

والاشادة بخلابته وبيانه • لولا اننا آثرنا ان لا يفوتنا سؤاله عن أنواع من النبات لم يسمها فى تلك المناحة التى أقامها — ماذا كان من شأن القطن بأصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والقثاء فى ذلك المأتم العميم الذى كانت الطبيعة فيه احدى النائحات « فقط » ؟ ؟ انه سكت عن هذه الانواع وغيرها فهل ذاك لانها لم تكن من اتباع النباتى الكبير أم لان من خواص تلك الانواع التى يعملها الشعراء ويجهلها النباتيون أنها مضيعة للعهد ناكرة للجميل ؟ ؟ أم لعلها لا تنتمى الى عالم النبات وان ردها الناس اليه ، كالمرجان يحسبه قوم نباتا ويحسبه آخرون جمادا وهو من عالم الحيوان ؟ ؟ أم هو الصدق فى الخبر والامانة فى التبليغ أوحيا اليه ما قال فذكر فريقا وسكت عن فريق : رأى الرجل الاقاحى باهتة ذابلة على غير عهدها وأبصر شقائق النعمان تخمش خدودها فابرأ ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئا فربأ بشعره عن شهادة الزور والتخرص وسجل عليها ما سجل من جمود الطبائع وقسوة القلوب ؟ ؟ تلك أسئلة ما كنا نسألها لولا أهميتها وخطورتها ولولا اننا تعلمنا مذ الآن ان نرقب أعين كل جامد ونابت وحى ، حاشا الانسان ، تعرفا لجلائل الانباء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار البرق ويطير بها النجابون ، ولولا اننا عرفنا ماذا ينبغى ان تحذر الامة من موت الاخصائيين من رجالاتها ، وأنها مسئولة ان تضن بارواحهم مخافة ان تمتقع نرجسة أو تسود فحمة ••••

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتي الى رثاء العالم الطبيب فقال مفصلا مقسما:

أما مصاب الطب فيه فسل به ملأ الاساة
أودى الحمام بشيخهم ومآبهم فى المعضلات
ملقى الدروس المسفرا تعن الغروس المثمرات

والقارىء يرى انه لم ينح نحوه الاول . وما كان ذلك بلا ريب استهجانا له

أو توبة عنه وانما خانته القريحة وخذ له الاختراع • والا فماذا كان يمنعه أن يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة — مثل هذه الابيات .

طـربت لمصرع غالب فى الارض رسل الحميات
قد مات (غالب) جندها فتمردت بعد (الممات)
أمست جراثـيم المـلا ريا من سرور (ظاهرات)
وتفـرق التيفوس والـ تيفود فى كل الجهـات
وتألب المـكروب والـ بكتيريا بعـد الشـتات
وبكت قوارير الصـيا دل بالدمـوع السائلات

فهذه أبيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد لاشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليـدنا فليقل لنا فيم أخطأنا المحاكاة وخالفنا الاحتـذاء ونددنا عن القياس ولـكأننا بصاحب « الامتياز » الاصلي يعض بنانه ندما على فوات هذه التتمة الصالحة فأنه ليس أغص للنفس من فرصـة يلوح لها تأتيها بعـد معالجتها واليأس منها ....

كذلك يؤبنون يامن خلقتهم فـكيف تراهم يتهكون ؟؟ وأما والله لو توخى هـذا الذى شمر لتأبين عثمن غالب أن يمازح الرجل بكلام يعرض له فيـه بعمله وصناعته مسترسلا في الدعابة مستهترا بالمجون متبسطا فى الفـكاهة لما استطاع أن يضرب على أوقع من هـذه النغمه • فايت شعرى بأى ذوق مزج بين هـذين الشعورين المتباعدين تباعد القطبين ؟؟ أبذوق الشاعر المفطور الذى يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر ، والذى لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليـه أخفى ألوانها ؟؟ يقولون أن اذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر ينبغى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمير شعراء لا يميز بين احساسـين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان — أحدهما لا تحسه النفس الا في أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط والانشراح ،

والثاني انما يخامرها فى أقدس مواقف الموت وأجلها : موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته .. !! ألا هكذا فليمت الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن فى دار الخلود

مه ! مه ! أن من السخف لما تعافه الجبلة وتتقزز منه النفس تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذى تمنونا بلادة الاغبياء بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع وأقذره لانه كالورم الذى يخيل الى الغر من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن ورونق الصبا فيهوى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززاً أن يرى الدمامل مقبلة مرموقة

ومن نظر الى عشرة ممسوخين في بقعة واحدة فاشمأزت نفسه من رؤية عاهاتهم ومقاذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره بل هو لا يروقهم الا لما فيه من غثاثة وعوار — خلائق كل مانستطيع أن نعلل به هذا الاعوجاج فى طبائعها وأذواقها أنها تلفت لفرط ما أخلدت الى الكسل والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التى بقى لها أن تعني بها وتكترث لها ونغلت لشدة ما توالى عليها من عنت الدهر وذل الحوادث والحاح الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء للازب شر ما تمنى به نفس بشرية: أعقبها العجز عن احتمال الجد والتمادى فى الهزل واللجاج فى السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدناً لها بل كادت تكون خلقاً ثابتاً فيها . وساء فهمهم للذوق السليم فأصبح جهد الذوق في زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنث الترف المؤنث ، وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الذوق الانساني وحسن استعداده وانما هما نقيض هذا الذوق وأقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية — ألا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين: يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش أحشاءهم وتقضم عظامهم وتلغ فى دمائهم وهم يسمعون أنينهم ويتلذذون بأوجاعهم كانهم تلك السباع الضارية تتلذذ

بما تأكل وما تشرب ! ! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد ! ! كانوا فى عهدهم الذى بلغوا فيه من الترف ونعومة الاخلاق مالم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولا بعدهم

***

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الذوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات . ألا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد أنه توفق هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية الله أحيا المومياتِ

يأمر الشاعر المرثى أن يقوم من الموت . ولماذا ؟ ؟ ليرى آية . . . فيحسب السامع أن الآية التى سيراها الدفين بعد بعثه أعجب وأخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم أن الاعجوبة التى يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هى النظر الى ميت يبعث . . . فهل سمعتم في العى والاحالة ما هو أحمق من هذا اللغط الفارغ الخاوى ؟ ؟ أليس هذا كايقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يعرض فى المسارح للمتعجبين ؟ ؟ وعلى أن بعث العلامة المدرج فى أكفانه أغرب وأشد استحالة من بعث المومياتِ التى يعنيها شوقى لان موت الامم مجازى لا تستغرب الرجعة منه وموت الافراد حقيقى لا رجعة منه فى هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من بعث الاستاذ غالب أن يرى « المومياتِ » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه فى ضريحه ، لا لشىء الا أن يرى المعجزة التى قد رآها ... وبعد فليذكر شوقى أن الذين يدعوهم بالمومياتِ هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فأن كان هو شاعرا لاحد فهو شاعر المومياتِ ، وان كان لشهرته حد فهو اليوم الذى يقال فيه عن تلك المومياتِ

خرجت بنين من الثرى وتحركت منه بنات

ثم ماهذا الولع من شاعر « المومياات » باقامة الاموات ! ! فهو ينادى عثمان « قم ترآية » ويصيح بسليمان « قم بساط الريح قام » ويهتف بالاستاذ الامام شامتاً « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم ان اسطعت فى سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره • • أفلم يكفه قيام الاحياء حتى يقوم له كل من فى التراب ! ! !

ولم ينس شوقى براعة المقطع فختم القصيدة بأليق بيتين يتمان ما فيها من خطل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكر جاء رسوله فأتى بأحدى المعجزات

عيسى الشعور اذا مشى رد الشعوب الى الحياة

ففى كل مختصر من مجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ويكاديضع كلامنهما بالموضع المقابل للآخر • وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول احياناً • « ليست هذه مسألة عقل • هذه مسألة احساس » أو مافى معنى ذلك • ولكن شاعر العامة لا يفطن الى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئا واحداً ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم أن الحياة هى التى تنشىء الشعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهواً ولا يشعر الا لهواً ولا يمارس أسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفواً لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية •

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ماتوصف به انها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلداً للمقلدين فى استهلاله وغزله ومعانيه

مثل لنفسك أيها القارىء شاعراً من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعاً أول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكنافها ويتحرى عجائبها ويستكنه أخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفنونها ، الى ان سيق اليه صنيعة من صنائع شوقى فأسمعه أن هاهنا شاعراً يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لايذكر له من الالقاب الا لقباً مزدوجاً ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أوشاعر الأرض والسماء أوشاعر الانس والجن أو شاعر الاقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين — الى أشباه هذه الالقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحد كائناً من كان في العالمين. وقد تعلم أيها القارىء أن أذكياء الغربيين وخاصتهم لايألفون الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم ، فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الاقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والارض والسماء ، وان كان لأحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى أو هوجو أوجيتى بشاعر أوربا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبعات كتبه — مسوغ لهذا اللقب . فلابد أن يلمح الشاعر الغربى فى تلك الصفات التى سمعها مغالاة وشططا . بيدأنه يحب أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وأن يعرف المعانى والمثل العليا والخيالات التى اذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الاوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ماتنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعى ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هى قصيدته فى استقبال أعضاء الوفد

يبـدأ صاحبنا معجباً فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانج من جمـاعة الظباء السائرة فى الرمل ومن جماعة الظباء . . » وهو ترجمة قول شوقي :

اثن عنان القلب واسلم به من ربرب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظاناً أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا انه يتوهم أن فصائل الظباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم فى هذا الجانب من الارض فيتقونها ويهربون منها لضراوتها وعرامها . ويود لو يرى هذه الاوابد الافريقية فما هو الا أن يسأل صاحبه فى ذلك فاذا الجواب حاضر يلقى اليه بابتسامة الاستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس فى بلادنا ظباء مخيفة ولا أليفة — ماالى هذا قصـد شاعرنا ، وانمـا هو يعنى النساء »

نساء وما شأن النساء بهـذا الحيوان ؟ ؟ يسأل الرجـل مستغرباً فلا تتغـير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فاننا نشـبه المرأة بالظبية اقتـداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الـكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية »

نقول : ولا يبعد أن يرتضي الشاعر الغربي هذا التشبيه على أنه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هـذا ، ولـكنى لاأدرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلاء ، ولم تـكون شوارع مصر تلولا ان كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟ ؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه . « اذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! »

وما أشد ماتـكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لايرى داعيا لذاك الافتراض : « ولماذا ؟ ؟ ان الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الاقدمين »

فيفاجأ الرجل ويجد أنه قد أحال غير قليل على تباين الامزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضاً أن يحيل التقليد فى الغزل على اختلاف الخلقة

وتفاوت التركيب ؟ ؟ ولئن صح ماترجم له ولم يداخله شك فى نهضة الامة ليكونن اذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز فى العقول : فأما ان الشرقيين ركبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث اذا أحب السلف العربى أتى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون . . . وهو مستحيل . وأما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون فى ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما ويحيا ويموت الآخر حتى مايحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرئ من قلبين فى جوف واحد

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه أخذ يفهم بعض الفهم ويقول لمترجمه : « أخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسراً : « ان الغربيين كما يتسلون أحياناً بلبس ملابس الرومان واليونان الاقدمين أو يتزيون بزى الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا باحتذاء أسلوب الشعراء من الامم النازحة والاجيال الغابرة . رياضة وتفكها لاجداً والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لايعد من جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية مافيه انه رياضة مقبولة »

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات يحسبها احاجى والغازا . ويظن انه يذب عن شاعره المزدوج الالقاب حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولامستريضا وانما نظمها فى مستقبل أمة ناهضة . . وتحية لزعمائها ..

الى هنا ينتهى العجب ياليقين ـ فان كان الرجل قد ارتضى التقليد فى التشبيه والغزل واغتفر نقض المدينة العامرة يبابا وقلب الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام فى نهضات الامم بالغزل صادقا كان أو مستعارا ، وان يفهم الابتداء بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلاء ، تمهيداً للثناء على مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وان يئن ويتوجع ، فى حيث

يفخر ويترفع ، وان يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصح والاهابة ، فذلك مالا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وان أعوزته دلائل الحكم على منحى أفكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج أن يظلم أو يتجانف ، ثم لايكون بعد ذلك الا معذورا

***

ونحن لم نمثل فى الحديث المتقدم بشاعر غربي لان فهم هذه البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم بساطتها ان يفهموا على أى وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح عليها . والا فأى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ربقة التقليد لايشعر لاول وهلة بالخلط الشائن فى هذا الضرب من الشعر ؟ ؟ ماالشعر الا كلام فان كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته أنه أجمل وأبلغ وأحسن وضعاً للمعاني فى مناسباتها . فهل يتكلم الرجل فى السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل أن يخلط فى قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام فى نسق واحد ؟ ؟ فلو انه كان صادقا فى عشقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لايعشق بغير اللسان ! !

***

لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لايقيم الا على نية الرحيل ولايزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نؤى تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكي هواه ، هجيراه كلما راح أوغدا حبيبة يحن الى لقائها أو صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر فى الاغراض التى من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة ثم تقدم بين يدى ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لاخلط فيه ولا بهتان

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الامراء والاجواد في أقاصى بقاع الجزيرة

يحملون اليهم المدائح يبدأونها أحياناً بوصف ماتجشموه فى سبيل الممدوح من فراق الاحبة وألم الشوق وطول الشقة وأحياناً كانوا يصفون الناقة التى تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظمأ والطوى ومواصلتها الليل بالنهار سعياً الى الممدوح كناية عن الشوق الى لقائه ، وكان الغرض فى الحالتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الامل فى مثوبته ، فكان الابتداء بالغزل ووصف المطى فى قصائد نظمت فى المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة لايعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج الى النموذج والاستاذ فأقاموا المتقدمين أساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لايبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لايزالون يفدون على الامصار فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع فى هذا العهد ويتقاربان حتى لاينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدماً حسناً فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وأفرد كثيرا من الغزل فى قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك فى العظائم كما صنع أبو تمام فى بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفى رائيته التى أولها

الحق أبلج والسيوف عوار فخذار من أسد العرين خذار

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتتحاً

ذى المعالى فليعلون من تعالى هكذا هكذا والا فلا لا
حال أعدائنا عظيم وسيف الد ولة ابن السيوف أعظم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثاني

وكما صنع الشريف واضرابه فى كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم

ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الامير فى المدينة وانه لعلى خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التى اجتازها والمطايا التي أنضاها وحقوق الصبابة التى قضاها . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله فى مطلع كل قصيدة حتى فى الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لاحد من المتقدمين على بال ... يجىء شوقى فيتماجن ويتصابى فى مطلع قصيدة ينتظر بها مستقبل أمة ويقول فيها

قد صارت الحال الى جدها وانتبه الغافل من لعبه

ويجىء أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيتمولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين انه مجدد وأنه عصرى بل أنه شاعر العصر

وهل تعلم ما الغزل الذي استحل لاجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعاً فيه أقل ابتداع وان حق عليه اللوم لوضعه فى غير موضعه — ولكنه هو الغزل الرث الذي ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظامين والشعاريز بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فاى سوقة من صعاليك الوزانين لم يغسل رجليه فى وعاء هذه المعانى التى نضح بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعى العروض لم يقل فى وصفه : « قد يتثنى كالبانة » « أرداف مرتجه كالكثبان أى كأكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالاقمار أو كالنجوم » . « مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » الى بقية تلك الكناسة الشعريه المنبوذة . وهذه هى روح العصر فيما يحدسون ! !

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته الى موضوعه . فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها الصحف يومئذ لولا أنها

متناقضة متدابرة وأنها خلو من الاسباب والحجج التى بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعرى فيه ففى بيت القصيد أو بيتيه وهما

قطارهم كانقطر هز الثرى وزاده خصباً على خصبه
لولا استلام الخلق أرسانه شب فنال الشمس من عجبه

وأنه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح . ولو كان للشاعر فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن (مكره أخوك لابطل)

ولا أسهب فى التعليق على البيتين ولكنى أروى مشاهدة يتبين منها القارئ مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وأن فى الاطفال اللاعبين خيالا أفطن وتمييزا أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة

بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الامريكية منها مناظر خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن أشدها غرابة المطاردات الجامحة التى تجري فيها خوارق المادات فتتحرك الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والاوانى . وهى كثيرة لا أظن زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحداً منها — حضرت منظرا من هذه المناظر فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة الى ان وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكا . وما أخالهم الا كانوا مصدقين ما يرونه وانما ضحكوا الان المنظر مضحك على كل حال . . . فليت شاعرنا الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنه حضر يومئذ فسمع ضحك الاطفال من سيارة تطير فيعلم ان طيران القطار بقاطرته ومركباته فى الهواء مسخرة لامفخرة . ولو استطاع خياله الكليل ان يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى القطار شابا فوق الرؤس فى طريقه الى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرساته يمنعونه ويكبحونه — لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والامر بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة

السذج ولولا انهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعت بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية . « الحمد لله الذى لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ »

أما ان القطار كالمطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيه لا أصل له . ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأى قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة . على انه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس فى الحروف . وهكذا تتعلق اشعار المقلدين بالحروف والالفاظ لا بالحقائق والمعانى . وشوقى كما قلنا فى أول المقال مقلد المقلدين

النشيد

ربما كنا فى غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق أحدا يتقبله ويحله المنزلة التى أحلته فيها لجنة الاغاني والالحان . فان ألممنا به الماما فى طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهى توقيف بعض القراء على قيمة أحكام اللجان ، وانها فى أكثر الاحيان تبع متبع ، لايرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والادب فى مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما فى أوربا فربما بلغ من تهاون الادباء بشأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهور التى كتبها فى الاخلاق وقدمها الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطة الأبد

تصدت لجنة الاغاني للحكم فى أناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه الكفاءة — وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة باشياء جمة قل بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة فى واحد منها . فمن شروط الحكم فى الاناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الالحان على المعاني ، مطلعا على أناشيد الامم ، بصيرا باخلاق الجماعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأى والعدل والجهل باسماء من يحتكمون اليه . فهل بين أعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟ ؟ اننا نعرف من بين أعضائها اناسا نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم فى علومهم ونراهم أهلا للحكم فى أعضل المشكلات التي تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق فى شىء لايفيد التفوق فى كل شىء . واذا علمت أن الرجل من الاخصائيين يقضى العمر فى فنه باحثا منقبا ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطىء ويبرم اليوم ما نقض أمس ، فأحر بك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم يدع الحذق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها

فمن هـذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا فى الجلسة وقبلها نشـيد شوقى المقدم اليهم غفلا من الامضاء ، ولا ندرى لم تـكلفوا أغفال اسمه ورأوا ذلك شرطا ضروريا لنزاهة الحكم ثم سـمحوا لاحدهم (الاسـتاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر فى الجلسـة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميـل من أكثر الاعضاء الى رفضه ؟؟ بل لاندرى لما أرجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد وتمهلت حتى يتم شوقى نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشـيدا ؟ ؟ أمن العار على الامة أن يكون فيها رجـل آخر يحسن أن يضع أنشودة واحـدة ؟ ؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين فى احدى الفرق يلحنونه ويروضون أنفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الاوراق وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر فى أناشيد مجهولة ، وأسرار مكتومة ؟ ؟ فهل سعى النشيد وحده الى دار التمثيل ؟؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقى وحرصها على اختيار نشيده قبلته على مافيه من مآخذ وعيوب ، نبه اليها بعض الفضلاء ، وردته الى صاحبه ليجتهد فى اصلاحه قبل اذاعته من قبلها . وذلك ان عضوا عاب قوله

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعـز ركـن

اليس لكم بوادى النيل عدن؟؟ الـخ الـخ *

وقال ان البيت الثاني منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والنيل بالـكوثر ؟ ؟ فوافقوه على انتقاده . وأنـكر بعضهم تأليف البيتين الآتيين ومعناهما

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفنا الصليب على الهـلال

واقبلنا كصف من عـوال يشـد السـمهرى السـمهريا

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل الى ان أحدهم قال : اننا نجعل مصر وطنا يشترك فى حبه ابناؤها ، وأما ملة ذى الجلال فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذى الجلال » وهو انتقاد سـديد فأننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟ ؟ انمـا يقال اتحدوا

فى الوطن واتركوا الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان. ولم يستحسنوا قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر ان عبارة « كصف من عوال » افرنجيـة التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا نحمل تبعتـه . ويظهر ان الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع المحافظة على المعنى فاصلح بيتاً واحدا وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت

نموت اليك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المفدى حيا

وكانوا قد أخذوا عليه قوله « نموت اليك » لانها لم تسمع فى كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت رضاك مصر الخ » — وقد نشر كذلك فى صحيفـة الاخبار — فلم يقتنعوا . فجعلها أديب فى النسخ الاخـيرة « نموت فداك » فاقتنعوا ! !

ونذكر أيضاً انه كان بين المحـكمين أعضاء من المغنين والعوادين جىء بهم ليحكموا فى أى الاناشيد أصلح للفخر القومي وأشـد اعتلاجا فى النفس وابتعاثا للحمية ومطابقة لنفسية الامة ! ! وليديروه فى اللحن الذي يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العاثرة ويسمعه الوانى فتضـطرم نفسـه عزما ، واليائس فيهجم الى الامل قدما ، والعدو فيتضعضع قلبـه رعباً وغما . . وليكون اللحن صـوت الامة فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والازمات فانظر أين ذهبـوا بهؤلاء المظلومين هل تعـلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان النفس يائسـة وراجيـة ، وغاضبة وراضـية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة ؟ ؟ وهـل فيهم من يروى بانغامه عن جـلال الحياة وجمالهـا وعن عظمة الـكون وبهجته كما ينبغى ان تـكون الموسيقى ؟ ؟ لقد علم كل انسان أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى ولكنها أصوات الذل والضراعة وألحان ينشـدها النائم فـلا يستيقظ ويسمعها الصاحى فينام

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى . وكان هذا وعده المعروف ولو انه لم يعد لما دار بخلد أحدهم انه على غناه يطمع فى مائة جنيه يحتجنها نفسه

فكان يهم الاعضاء ان يفوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادى الموسيقى ، والنادى بحاجة الى اعانة المتبرعين

ولا ننس ان اللجنة حكمت المويلحى ، وهو رجل تصل اليه هدايا شوقي . على انه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال رأيه اضطراراً • وحكمت حافظا وقد عرف أصحابه انه يتقى ان يرمى بالحسد ان أومأ بالنقد الى قرينه . ومن غرائبه انه كان ينحى على النشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الاعضاء فلما أعلن الاستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت

وعلمنا غير ماتقدم أمورا لانحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد الى النشيد غير آبهين لاحكم له أو عليه ، وليكن قياسنا اياه ان نلتمس فيه أبسط الخصال التى هى قوام كل نشيد ولا يجوز ان تخلو منها الاناشيد القومية

يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها وان لايكون وعظا بل حماسة ونخوة وان يكون موضوعا على لسان الشعب وموافقاً لكل زمان . وهذا أبسط مايطاب فى أناشيد الأمم . فهل نشيد شوقى على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟ ؟

فأما قوة العبارة فليس فى النشيد بيت يدب له الدم فى عروق منشده . وكل مفاخره أفرغت فى قالب هو أقرب الى الاخبار منه الى الحماسة . وأقواها قوله : —

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الامانا
ونحن بنو السنا العالى نماما أوائل علموا الامم الرقيا

وليس فى هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لاتجد مثلها فى قول من يقول «كان لى بيت سعته كذا من الاذرع ، بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، الى آخر أوصاف المساحة ..» فأى

فأى فرق بين قص المعلومات والحماسة اذن ؟ ؟

وأما سهولة العبارة فقدخلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه نم عن أعنات المقيد المجهود فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفاً معيباً واستعصي الوزن والقافية على صاحبناحتى صير « سئلت »سيلتو « تهيأ » « تهيا » و«شيئا»شيا: نعوذ بالله من الشى

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه:

بنى مصر مكانكم تهيا فهيا مهدوا للملك هيا
خذوا شمس النهار له حليا ألم تك تاج أولكم مليا
على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادى النيل عدن وكوثرها الذي يجرى شهيا

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟ ؟ أأجنبى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟ ؟

ولقد استوطأ شوقى مطية الفلسفة والمواعظ بعد ان ركب حمارها ببيت واحد سوقى المعنى وهو قوله :

وانما الأمم الاخلاق مابقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وايابا فى كل مكان ومقصد . حتى طلع لنا بأذنى حماره الفلسفى هذا فى موعظته « على الاخلاق خطوا الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك أو شمالك . . فكانما كان شوقى على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ماأمكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق لا لان نشيده كان كما وصفته الاجنة « أكفاها وأوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسق لنشيد قومى مصرى » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للاناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار

وفى المقطوعة الاولي خطأ تاريخى ماأظرفه فى نشيد أمة تفتخر بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر مصر وانما كانت معبوداً

لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . وأما تاج الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الاولى فى المدارس الثانوية . ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور المعبودة أو التى يرمز بها الى العبادات ولم تكن الشمس قط حلية لهذه التيجان . . فياحبذا النشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعه عنوانا على جهلها بتاريخها

ولا يكلفنا القارئ ان نأخذ على شوقى مبالغته في قوله « خذوا شمس النهار له حلياً » فاننا لانحاسبه على كلمة له فيها وجه تأويل

وأما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا . فنظم لنا نشيداً لا نتخطى به فى جميع العصور ان يتهيأ مكاننا • وان لا نبرح نشرع فى التمهيد ونأخذ فى الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الاركان • وما علمنا شاعراً قوميا يطلب اليه ان يكون فأل الامة وهاتف مستقبلها فينعب فيها نعيب النحس وينذرها جمودا لاتتزحزح منه أوتنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الآنفة ، وأجهل مايكون هو اذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعشا البصيرة ان يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومى ، أى دعاء لايعوقك دين من الاديان ان ترتله فى البيعة أوتشدو به فى الكنيسة أو تصلى به فى المسجد ، فيخيل اليه أنه اذا جمع فروق الاديان كلها فى جملة واحدة فقد أتيح له هذا الغرض • فيستشفع فى دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبي الحق » فيكون ماذا ؟ ؟

يكون ان الاسرائيلى يحرم هذه الصلاة فى بيعته لانه لايؤمن بعيسى ولا بمحمد — وان المسيحى لايدعوا الله به فى كنيسته لانه على احترامه دين مواطنه المسلم لايعتقد النبوة الاسلامية ، ولانه يدين بربوبية المسيح لا برسالته فحسب وان المسلم يصلى به وحده فكانه لم يشر فيه الى دين غيردينه ، وان الدعاء القومى

لايكون دعاء لاحد ممن يضمهم قوم مصر

ولو أن طاهياً صناعته تجهيز الموائد قيل له ان ثلاثة من المدعوين فى الدار ليس يشتهى أحدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج أطعمتهم كلها فى صحفة واحدة لطرد من فوره ، فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لايغفل الطهاة ويغرق فى غفلة الذهن حتي أحسبه أحيانا يتعمد الامعان فيها ويطرقها من الباب الذى يفضي به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولايتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد ان خطرله ان يجمع شفاعات الاديان أجمع كي تكون شفاعة لكل دين ، عمد الى لصق الانبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لايناسب هذا المقام ، والذى لو كان هو وصفه الفذ لاسواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدرى شاعر مصر من رق من هرب موسى ؟؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به ! ! وقد نجد فى خفراء الريف كياسة تمنعهم أن يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، أو يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء

ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية ، فلا هو فى الشعر ولا فى النثر شاعر قومى موفق العبارة : وقد قرأناهما لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطأه فى النشيد أخف وأهون ، من حيث ان الاناشيد لايصلى بها فى المساجد والكنائس ، لامن حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد اننا لانرى معنى لزج الاديان فى الاناشيد الوطنية ، فقد كان يكون أدل على الوفاق ان لانجعل وفاق الاديان مباهاة ومأثرة ، لان المرء يباهى بالشىء النادر أو غير المنتظر وهذه الامم المتحضرة والمتبديه أليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟؟ أتراها لاتحب ان يكون الوفاق شعارا لها

ولقد قدمنا اننا لانقصد الى الافاضة فى نقد النشيد ، فكنا نقارنه بما نعلمه من الاناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما

وقد أخذنا من مساوئه ماأخذنا فليس يسعنا ان نهمل مأخـذا سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهى هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا فلما آل للتاريخ ذخرا
نشأنا نشأة فى المجد أخرى الخ الخ

ويقولون ان التنوين لابد ان يسقط فى الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت فاذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « فخرا » ومدبها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشـيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقـد ولـكننا نعـذر المنشـد فى موقفه والملحن فى صنعته

نقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هـذه الامة شـعارا ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة — نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا الا عجب من تفضـيله على النشيد الثانى ومن اجتراء اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رأيهم . ولا أخفى عن القارىء انى ما كنت أظن فى جمهور قراء الادب استقلالا يقاوم تآمر المحـكمين والصحافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة ونزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشدين المنشورين ، وفى هذا الاستقلال أمل نغتبط به ونحمد بشائره

عباس محمود العقاد

النشيد القومى

رأينا أن ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقى ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذى يخشاه شوقى من التفات الاذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر بعد شيئا من شعره للقراء وشوقى يملأ طباق الارض باسمه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى على أحد • وقد اتصل بنا انه كان ثالث الاناشيد التى اختارتها اللجنة فاذا حسبنا للمحاباة حسابها جاز أن نقول انها حكمت بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارئ التفاوت بين النشيدين حتى فى الخصلة التى اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب هنا أشبه بمناجاة النفس وهى فى نشيد شوقى مخاطبة أجنبى معتزل للشعب الذى يناديه . وهذا هو النشيد :

يابنى النيل وأحفاد الألى أطلعوا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والعالم لا يبتنى الا خصاصا من هشيم

***

أذكروا أن ثرى هذا البلد من تجاليد الجدود العظماء
لا تطئها أرجل العادى الألد وبكم أبناءهم بعض الذماء
تربها التبر المصفى المنتقد لا الذى يقنى الشحاح الادنياء
فامنعوا كنزكم أن يبذلا أو تعيشوا عمركم عيش عديم
لن تروا فى الارض عنه بدلا مالكم كنز سوى هذا الاديم

***

أذكروا أن عليكم واجبا لبنينا فى بطون الاعصر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا فهو حق الوارث المنتظر
نتقاضى الارث عصرا ذاهبا فلنصنه للعصور الأخر
سنؤديه اليهم أكملا لم يغيره زمان أو خصيم
فحمى مصر تحاماه البلى وبنوها خير من يحمى الحريم

أذكروا حاضركم كيف يقام ليس يغنينا تليد القدماء
ما التماثيل المهيبات الجسام وأبو الهول رهين الصحراء !
ما المسلات على باب الرجام والنواويس وفيها المومياء !
ما عظيم تالد من العلا فى ثنايا حاضر غير عظيم !
فاجعلوا عهد العلا متصلا كاتساق الدر فى العقد النظيم

***

أذكروا مهما باغتم سؤددا أنكم لم تبلغوا أوج الكمال
أبعدوا فوق المنال المقصدا فبنو الشمس لهم أقصى المنال
كم عبدنا قرصها المتقدا فاتقدنا فى حماس ونضال
نبتنى الهيكل يتلو الهيكلا خالدا فى ساحة الرمل مقيم
وسيبقى موطن الشمس الى يوم لا يبقى لها قرص ضريم

***

أذكروا أن التفانى والغلاب فى سبيل المثل الاعلى البعيد
نفثا فيكم وأنتم من تراب شعلة غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب وتصفى النفس من رجس الوجود
فاضرموا فى النفس هذى الشعلا أضرموها تكفلوا الفوز العميم
مثلما أضرمت النار على مذبح الرب بمحراب كريم

***

أذكروا ذلك وامضوا قدما لاتكن وجهتنا غير الامام
تزدجينا دقة القلب كما يقرع الطبل لجرار لهام
فنسوغ الموت ذوداً للحمى ونذيل العمر سعيا واعتزام
فبحق نحن أحفاد الألى اطلعوا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والعالم لا يبتنى الا خصاصا من هشيم

عبد الرحمن صدقى

صنم الالاعيب

شكرى صنم ولا كالاصنام . ألقت به يد القدر العابثة فى ركن خرب على ساحل اليم — صنم تتمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم « ارستفانيز السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم . و — لم — لا يخلق الله المضحكات وقد آتي النفوس الاحساس بها وأشعرها الحاجة اليها ؟؟ ولم يلتزم فى الانسان مالا يتوخى فى سواه من وزن واحد وقافية مطردة ؟؟

هنا لك اذاً على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبعث على تدبر القدرتين : هنا ثبج مزبد وأبد لا يحد وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد وحياة متجددة وأواذى متوثبة متولدة — وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدات بها عذبات الاشجار ، ولا يملأ صدرها حسن الآصال وروعة الاسحار ، ولا يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكائم تتفتح عن آنق الازهار ، أو الغمائم ترسم فى صفحة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة فى مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذيوعها وانتشارها بل « وثبها » من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر مدى البصر بحراً مائجاً من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر فى الصباح البليل وقد أثقلت أكمامه الانداء فتساندت رؤوسها كأن سرباً من العذارى على الماء بوغتن فنزاحمن تحت ثوب أبيض

كلا ليس فى كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك هذا الصنم لان باطنه شاءت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس بنفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء الا أن تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجده نور الحياة وحرها ولا أغنيا عنه من جمود طبعه شيئا وان كان وهو ملقى بين انقاض حياته يتوهم

انه ملهب الموج بسياطه ومدير الافلاك بتدبيره وحكمته . يقول كلما أعجبه شكله أو حاله أو أثاره نبذه واهماله « انا اله الشعر » فتلاطمه الرياح وتدحرج ثقله على افريز البحر وترميه الامواج برش من سخرها وتسك أنقابه برعد من ضحكها فما أجله من اله يتضاحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر اذا كانوا أسلم فطرة من أن يكترثوا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين واذا تركوه غارقا فى طوفان من الاوحال النفسية مدفونا فى قبر من بكمه العجيب . وأى بكم أعظم مما أصيب به هذا المنكود الذى لا يكفيه ان يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبيا فنيا ورسولا بدين هداية فى الادب ؟ ؟

وأنت أيها القارىء قد تعلم أن سر النجاح فى الادب هو علو اللسان وحسن البلاغ وقوة الاداء وان على من يريد أن يشرح ديناً جديداً « لأطفال » هذا العالم أو أن يحدثهم بما أحب أسلافهم فى سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه أن يذكرانهم لم يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاستمرأوه وانه لكى يغريهم به ينبغى له أن يتوخى القوة فى العبارة عما يريد فان الناس خليقون أن لا يؤمنوا الا بمن عمر صدره الايمان

وقلما ظهر كاتب أو شاعر الا بالاداء وكثيراً ما يمتاز بعض الكتاب وتخلد أثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن أراء غيرهم كأبى اسحاق الصابىء كاتب الملوك والامراء وان كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب فى تاريخ العقل الانساني والذين يستطيعون أن يستغنوا الى حد ما عما لا مسمح للاديب عنه ، وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والعواطف الذكية تكون الحاجه الى ضرورة فن الاسلوب .

ولعل هذا أكبر الاسباب التى أفضت الى خمول شكرى وفشله فى كل ما عالجه من فنون الادب لانه لا أسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء أن يجيل نظره فى كلامه ليدرك ذلك

اذا كان على شئ من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه أن يرى أنه يستعمل اللغة جزافاً ويكيل « توافيق وتباديل » — كما يقول الرياضيون — من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس اصداء متقطعة لأصوات مألوفة لا رموزاً منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك فى موضعه من هذا النقد

ويخيل الينا أن شكرى على كثرة الشكوى فى شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله

قد طال نظمى للاشعارا مقتدرا (؟) والقوم فى غفلة عنى وعن شأنى
هذى المعانى تناجيهم فما لهم لا ينصتون بافهام واذهان ؟

وتعزيه بان الزمان سينصفه ويديل له من خصومه وتظاهره بالاطمئنان الى حكم الايام فى قوله

أرمى بشعرى فى حاق الزمان ولا أبيت منه على هم وبلبال

مجاراة للمتنبى وتقليدا له فى قوله

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

نقول يخيل الينا ان شكرى لو شاء لفطن الى سر هذا الخمول وعلة ذلك الاهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وان الناس لا ذنب لهم فقد بحثوا فى شعره على شئ جليل يروع او حسن يلذ ويمتع او مستظرف يلهى ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة فلم يجدوا عنده غناءهم وألفوه يريد ان يجعل نفسه هزؤة السخفاء وضحكة الفارغى القلب والعقل جميعا . ولقد كان هينى الشاعر الالمانى الجليل يسخر من نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالانسانية كلها ممثلة فى شخصه ولا يسع كل قارئ الا ان يحس أنه أصاب موضع الداء . أما شكرى الذى أراد ان يقلد هينى والذى زعم ان العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول

وان «ادرج» فى قبرى قتيل الحب والياس

فمن يصدح بالشعر ومن يسخر بالناس

هـذا الساخر العظيم والصيدح الغريد والرسول الجليـل لايطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله الى سمو قلق وانما غاية مايرجو فى حياته ان يفوز به على قدر ما استطعنا أن نستوضح غرضه من ايماءاته الخرساء — وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهـدأ ثورته اذا بلغه هو أن « تمر به الحسان فترتضيه » ! ! هـذا هو دينه الذى يدعو النـاس الى عبادته ولا ينفك يشكوهم الى الزمان ويشتمهم ويرميهم بالغباء لانهم لا يستمعون اليـه . اليس هو القائل فى بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه

كفانى من نبيه الذكر أنى تمر بى الحسان فترتضينى

ولا أدرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز فيه انه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه فى معرض تمر به فيـه وتجسسه بعيونها وأكفها كما يفـعل الصبيان باللعب والصور ؟ وما ذنب نصف الناس على الاقل اذا كانت همامتهم ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة ؟

وعلى أنه عجز عن ايضاح هذا الغرض الضئيل اذ من الذى يستطيع أن يفهم شيئاً من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج أن يقول فى نفس القصيدة التى أنزل فيها دينه على الناس وأطلقها من قيود القافية ـ والوزن أحياناً ـ لكيلا يعوقه عن التحدر شئ ـ معاتباً الغرام

اتقصينا ونحن مقربونا من التبيان والادب الغزير

ولعمرى ما عـدا الواقع فى قوله انه مقرب من التبيان والادب ولـكن التقرب منهما شئ وورود شرعتهما شئ آخر ، وهل بل طرف لسانه من معينهما الفياض من يقول

وفى السعي شئ يعوق الطماح فيخطى الاجل ويصمى الاقلا

ولو سئل هو نفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب القول أو من يقول فى صفة المشنوق

ضاقت الارض عن مآثمه فاعـ تاض عنها برقة الملحود

كأنما حسب المرزوء فى عقله — ان كان مافهمناه من البيت هو المقصود — أن المشنوق سيظل معلقاً فى الفضاء الى الابد أو أن الارض تضيق عن شىء من المآثم أو المحامد أو انها هى التى لفظته وأعلته لتمكن حضرته من وصفه • ومن العجيب والذى يدل على أن شكرى متكلف لامطبوع وان مايزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد فى الشعر باطل انه هو نفسه قال ينعى على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناحيهم

« واذا صلب أحد الامراء قالوا ان قاتليه أجلوه فلم يرضوا له القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الارض عن أن يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الاكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر فى قلب الحقائق واظهار الذميم مظهر الحسن . . . وليس أدل على جهل وظيفة الشعر من قرنهم الشعر الى الكذب وليس الشعر كذباً بل هو منظار الحقائق ومفسر لها وليست حلاوة الشعر فى قلب الحقائق بل فى اقامة الحقائق المقلوبة ووضع كل واحدة منها فى مكانها الخ »

فما أحلى هذا الكلام وأصدقه وما أبعد قائله عن العمل به وأدناه الى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول « كله عبثا لاطائل تحته » أوما جدره ان يكف عن دعواه انه من رجال المذهب الجديد فى الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء باعترافه . أترى هذا المفتون يحسب انه يستطيع ان يخدع الناس بهذه النظريات التى ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما كان شعره من النوع الذى ينعاه على سواه ويعيبهم به . أم ظن انه يكفى ان يلوك المرء جملا كالببغاء ليكون فى نظر الناس حديثاً سائراً مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر ان هذا هو الذى يعتقده شكرى فبينا تراه يقول فى مقدمات ديوانه « ان الشاعر الكبير (مثله بالبداهه) يخلق الجيل الذى يفهمه

ويهيئه لفهم شعره » ترى له فى بعض هذه الدواوين يصف ليلة ذكرها

يبيت الندى فوق الزهور مرقرقا كما انبعث الطل الرقيق ليقطرا

أوقوله فى فلسفة « تزاوج النفوس »

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما ومهرها الحب لايغلو لها المهر

من لى بنفس أرى نفسى بها مزجت كما تمازج فى وديانها الغدر

والنفس فى غيشها شتى منافذها منها القلوب ومنها السمع والبصر

(المقصود هو البيت الاخير) فأى جيل يريد هذا المائق ان يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السين كما ينطقها هو) أما كفى ان فى الدنيا سخيفا مثله حتي يطلب ان يوجد من أمثاله جيل برمته ؟ وأى بلية تكون شراً على العالم من هذه ؟ وأى خطب يكون أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !

وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى النقد التفصيلى ان نورد للقراء مثالا لشعر السخر الذى يباهى به قال

ناص صروف الدهر مستقبلا قذاله لو جزته أقرع

فجز من لمته خصلة لعلها من خلفه ترقع

فالدهر ان أقبلت ذو لمة لكنه من خلفها أقرع

مطلعه مثل طلوع المنى وحسرة ماخاف المطلع

ولا ترم بالذم صقعاً له فانما يصلع اذ يصفع

قراعه مثل قراع الظبى وانما يقرع اذ يقرع

فاطل قفاه بمداد لعل اللون من روقته يخدع

وغض عنه نظرا واعيا فانما يعديك مايطبع

وان جرى فى الدم كره له فخير مايجدى لك المبضع

حجامة لاشك فى نفعها وقد يضير المرء ماينفع

ولا تعف صحبتـه انه بالرغم من صلعتـه أروع
واحن له الرأس لكى لاترى فانهـا من خلفـه تلمع

ونحن انما نمثل لبكم هـذا المسكين ولانستقصى مخافة أن نحتاج الى نقل كل شـعره على التقريب ـ ونقول على التقريب لأن له أبياتاً مبعثرة فى أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنما معبودا لامنبوذا كما هو الآن . وما بالعجيب أن يكون له بضعة أبيات مفهومة فانك لو جلست ساعة الى مجنون أو أبله لجرى لسانه بجملة أو جمل تلمح فيها أثر العقل . وان كان لم يفكر فى مبانيها من الصواب وحظها من السـداد . وللعقل الذاهل المضـطرب انتباهات فجائية لعلها من أقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع صاحبنا الى البكم الذى مثلنا له ضعفاً فى الذهن واضطراباً فى جهاز التفكير لم تنفع فى معالجتهما كثرة القراءة والاطلاع على خير ما انتجت العقول . وقد يعلم القارئ أو لا يعلم أن الاطلاع قلما يجدى اذا كان الاستعداد مفقوداً وكان الذهن غير مستو أو صالح « لهضم » ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد بالموجود — كالمعدة الضـعيفة لاينفعها أن تزجها بألوان الطعام وكثيراً مايكون الاقبال على الـكتب والولع بها نوعا من الشره تحول من المعدة الى الدماغ . وماعدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه حيث يقول « ويمتاز الشاعر العبقرى (يعنى نفسه أيضاً) بذلك الشره العقلى الذى يجعله راغباً فى أن يفكر كل فكر » ولكن ما به ليس من هذا القبيل وشرهه لايجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو مايعانيه شكرى ولعله من أسباب ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريت وقصص السحرة والمردة والجان لمـا وقع فى نفسه من أن هذا حقيق أن يقوى خياله ويجعل له أجنحة يحلق بها فى سماء الشعر وفاته هو وأمثاله ان الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحقيقة وان كل كلام ليس مصدره صحة الادراك وصدق النظر فى استشفاف العلاقات لايكون الاهراء لامحل له فى الادب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان العواطف وضعف الروح تعيش فى عالم الشعر ؟

وليس في الوضوح وقوة الاداء وحسن البيـان ما ينفى العمق لأن العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقاً كما يشاء ولـكن مع الوضوح والجلاء اذ أيهما أحوج الى النور يراق عليه ويكشف عنه ؟ ما تلمسه اليد وهى تمتـد وتعثر به الرجل وهى تخطو أم ما يغوص عليـه المرء فى أغوار الفـكر ؟ فـكل غموض دليـل اما على العجز عن الاداء أو التدجيل أو استبهام الفـكرة فى ذهن صاحبها

على انه من أخش الخطأ وأضره بالاسـتعداد وأشده افساداً للفطرة أن يتـكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة النسور اذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمال فان العقل الصغير اذا التزم حدوده وقام بمـا يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل الى غايته من طريقه ولا يحس الحاجـة الى قوة العقل الـكبير .

وقد ركب شكرى هذا الجهل فتـكلف مالا يحسن وأراد أن يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الاولِ وظن ان الاجتهاد يغني غناء الاسـتعداد فلا هو بلغ أية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقى على خلقه الوادع وقناعته بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال البسه اياها

ولما كان السقم في الـكلام مرده الى السقم فى الذهن فسنبدأ نقدنا بالدليل الضمنى المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب ببيان الفسادالذى اكتظت به داوويته ونختم الـكلام بتقصى سرقاته واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعا.

***

لا نقول ان شكرى مجنون فنحن أرفق به من أن نصدمه بذلك وأعرف بحاله وبأمراض العـقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحـاء والتذكير والالحاح ولـكننا نقول ان ذهنه متجه أبدا الى هذا الخاطر — خاطر الجنون — وان فـكرته مالئة لجوحياته والخوف منه منغص عليه كل لذاته وعلالاته وانه حتى في طعامه يتوخى ما يظن أو يقال له انه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على

المقاومة كالسمك والبيض والمخ وأشباه هذه الالوان — وان ذكر هذا اللفظ على مسمع منه يدخل فى روعه انه هو المعني به فيمتقع — ولا يخفى ان اتجاه الذهن له دلالة خاصة وهو قرينة قلما تخطىء اذ لماذا ينصرف المرء الى خاطر بعينه لا يعدوه في روحاته وغدواته وفى طعامه وشرابه ويقظته ومنامه وفى أقواله وكتاباته من شعر ونثر — أو منظوم ومنثور على الاصح — ولكن اتجاه الذهن لا يصح ان يؤخذ به وحده فى البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . وأكثر أهل الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشذوذ . والجنون والعبقرية بسبيل وهما فى الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما متماثلتان فالعبقري ذهنه مكظوظ بالآراء حافل بالذكريات يتمخض أبدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والاصوات والالوان لا تفطن اليها عقول الاوساط . والمجنون فى ذلك نده وقريعه وكلاهما ترجع مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط فى بعض نواحى المخ أو فتورها أو قابليتها للتنبه والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا والجنون عبقرية وقد فطن الاقدمون الى هذه العلاقة ولمحوها وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير ان جنون العبقرية منتج يخرج — كما يقول افلاطون — الشعراء والمخترعين والانبياء اما الجنون المألوف فهذا عقيم نعيذ صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغى ان يتوهم أحدان العبقرية هى الجنون فليس اخش من هذا الخطأ ولا اقتل من ذلك الظن لان العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادي وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع الاضطراب فى التوازن العقلى والعصبى

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل عليها ويرهقها به كأن يكتب جزءاً من ديوانه فى شهر واحد حتى كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه ان يتمه فى وقت محدود . وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحة تناولم يعط نفسه حظها من الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج للناس الجزء تلو الجزء

كأنما يخشى ان يخب به المرض ويوجف بعقلة الداء فلا يستطيع ان « يصدح بالشعر ويسخر بالناس » ! ! وماذا أجناه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكأنما هو حجر وقع فى بئر فلا هو « صدح » ولو فى حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء عقله

والى القراء أمثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت »

حنينى الى وجه الحبيب جنون جنون يهيج القلب وهو شجون

وقال من قصيدة الدفين الحى

فهاج هياج الشر فى الاسر طرفة وأدركه حتى الممات جنون

وقال من قصيدة غاية الحب

وان كنت عندى جئت بالعقل والحجى وان لم تجىء فالقلب مجنون ثائر

ولكن وجدى منك جن جنونه فها أنا من حبى بحسنك هاتر

وقال فى « طبع الانسان »

ان بالمرء جنونا جاعلا نوبة للشر فيه تحتدم

لا ينال البرء من نوبته أو يذيع الشر منه والالم

وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت معدى عن لفظ الجنون

وفى كل وجه من جنون ومن أذى ملامح لا تخفى تناديك بالجهر

اذ من الذى يستطيع ان يدعى أن فى كل وجه ملامح من الجنون ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرئ غيره سكران ؟ وقال من قصيدة « سلوان الجنون »

عسى ان تجن النفس فيكم جنونها فلا ذكرة تصبى ولا فكر يخطر

فان جنون النفس سعد وراحة وان عناء الحب ذاك التذكر

فانساك حتى لست أدرى أعائش — على الارض تسعى أم دفين معفر

فان يبلغ الحب الجنون فلا تلم اما كل مجنون على الهجر يعذر

وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان فى وسعه ان يطلب الموت أو

السلوان ولكنه لشقوته يحسب ان المجانين سعداء لا يكرب أحدا منهم خاطر ملح أو وهم جاثم ولو انه سأل طبيبه لعرف منه ان بعض المجانين يعذبون أنفسهم بما يتخيلون وأنهم كثيرا ما يخلقون لا نفسهم جحيما من الاوهام يصلونها ، على انا لا ندري من أين جاءه ولماذا ظن ان حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون اذا بلغ الحب ذاك ؟ ولكنه معذور على هذه السفسطة على كل حال والناس كذلك معذورون اذا لم يقرؤا نظمه . وقال من قصيدة صنم الملاحة

بلغ الغرام الى الجنون فلا عتاب ولا ندم

وقال من قصيدة « الحسود »

وأدركه مس الجنون وأظلمت عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلغوك »

بالله ما تفعل لو بلغوك انى عرتنى جنة من هواك
وكيف لا يذهب لبى الهوى اذا مضت لى أشهر لا أراك

ومن قصيدة « انا مجنون بحبك »

انا مجنون بحبك فازل غلة صبك

ومن قصيدة القديم والجديد

ومن العشق جنون خابل يزدرى المرء له وقع التهم
انما الحب جنون وجوى ورجاء واجترام وندم

وقد ترقى فى هذا المعنى من القول بانه هو مجنون الى نسبة الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدهر أيضا قال من قصيدة « جنون الحياة »

لا ترع فالدهر مجنون كل حى فيه مغبون
جن من حول ومقدرة وكذا ذو الحول مجنون
فتضاحك ثم قل أبدا ان هذا الدهر مجنون
دهرنا دار المجانين كل حى فيه مسجون

ومن قصيدة « بعد الحس »

وكنت أعد الحسن فيك فطانة وأن جنوني فى هواك صواب

وقال من قصيدة « وحى الشعر »

كجنون النعيم والبؤس فيهم وهى تبدو لغيرهم كذكاء

وفسر البيت بقوله « أي عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والالم » فانا أشهد الله والناس انى لا أحس هذا الجنون . ولكنى أحسبه سينكر على الشاعرية لهذا على الاقل . وقال من قصيدة مشترى الاحلام

لو يستحيل المستحيل على الورى وأنال من أحلامه ما أطلب

لجننت جنة قادر متحكم يرضى على هذا الانام ويغضب

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من قصيدة صوت النذير

أم ضحكة الرجل المجنون من حزن لشد ما نال منك البؤس يارجل

حتام تنكر حقا غير مشتبه لا يكره الحق الا من به دخل

وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه أياه راجعا الى أى سبب غير الجنون

وقال من قصيدة بين الحب والبغض

وأن بقلبى من جفائك جنة فان رام يوما قتلكم ما تأثما

فأسقى جنونى من دمائك جرعة وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

فيظهر أن حبيبه عرف ذلك منه وأدرك أن جنونه قد يدفعه الى الاجرام فتحرى البعد عنه فما أشقاه ! جنونه يغرى حبيبه بالهجر والهجر يزيد فى جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة والى أى حال ينتهى به هذا الدوران ؟ ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما فى الاجزاء الاخرى . ولم ننقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان هناك أبياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله

أمشى (أحدث نفسى) عن محاسنكم حتى يخال حديثى لغو نشوان

نشوان ليس له عقـل فيسكته الحب خمرى وليس الخمر من شأنى
فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون وقوله وهو أدهى
واهتف طول الليل باسمك جاهدا وهاجس هذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا فى الهتاف ويعترف بان هذا داء ملازمه لاعرض زائل وقوله

(غاب رشد الناس) عن أنفسهم ضاع منهم تحت اشلاء الرمم الخ الخ

وليس الامر بمقصور على جولان هـذا الخاطر فى نفسه وملازمته اياه أبدا وعلى الصياح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب فى الطريق كالسكارى والاعتقاد بان كل الناس مجانين وأن الحياة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شئ جنونا مجنا وأن الزمن دار المجانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول

فى كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كأنما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا أن الامر كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهباً باللب نقول ليس الامر بمقصور على ذلك فان شكرى على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو — تساهلا فى التعبير — مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا أنه يسمع أصواتا أو يرى أشباحاً تختلف وضوحاً واستبهاما حسب درجة الحالة فاذا أصاب العين رأت مالا وجود له أو الاذن سمعت مالم يصدر فعلا من الاصوات وقد لا يصحبه أى اضطراب محسوس فى القوى المفكرة وان كان لاشك مع ذلك فى انه اضطراب محلى فى المخ اذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيراً ما يصحب بعض حالات الجنون «هذيان الاذن» أي اعتقاد المصاب أنه يسمع أصواتا أو أن أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب فى برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسير فى الطرقات وأشباح الآدميين والحيوان أيضاً وكان يسمع أرواحا تلازمه بالليل

تتخاطب وقد تكلمه ويسأله بعضهاعن بعض وقد عولج من ذلك بوضع «الدود» على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد الى بعض نواحى المخ

وقد قال شكرى — أعاذه الله من شر ذلك — فى الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا

أو كنور البدر فضيا له وتر فى القلب فضى النغم

« ما رأيت القمر الا أحسست كان نواقيس تطن فى أذنى . وأن الذ الانغام رنة الفضة المجوفة » اه

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهى قاطعة فى أنه فى كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى أذنه صوت نواقيس فضية ولنا أن نلاحظ أمورا

أولها — أن البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لان معناه مفهوم بدونه

وثانيها — أن ما (يطن) فى أذنه « كلما » رأى ضوء القمر ليس له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض — بتقريره أن ألذ الانغام رنة الفضة المجوفة خصوصا وان رنتها « ليست » ألذ « الانغام » وان كانت « أخلص » الاصوات وأصفاها والفرق كبير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغمة . نعم أن الصفاء من عوامل الحلاوة فى النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار — مع التسامح فى عد الرنة نغمة — لايمكن أن يعد « ألذ » الانغام .

وثالثها — انه كلما رأى « ضوء القمر » طن فى أذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخاصة وأهل الاطلاع والملاحظة ان « ضوء القمر » مقرون فى أذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهذيان كما يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء فى الذهاب الى انها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا أن نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب فى طائفة من الاعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول فى هذا الباب

ولكنا قد أطلنا وان كان التحليل ممتعا مغريا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزىء بملاحظة أخرى وهى أن لشكرى كتابين غير دواوينه أحدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا أنه وصفه بأنه « احلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهى كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتبا روسيا فى رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكرى ان حلاقا ذبح زبونا له لان رأس الزبون تشبه رأس الخروف فأغراه هذا الشبه بذبحه بموسماه وهى فى الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق

وقد سبق لنا ان نبهنا شكرى الى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى وأشرنا عليه بالانصراف عن كل تأليف أو نظم لينوز بالراحة اللازمة له أولا ولان جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانياً ولم تكن أمامنا فى ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الآن وقد رأى كثرتها وتوافرها — وهى كثرة مروعة — يرجع الى رأينا ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليق أن يحمده الناس منه فلا يحاول ان يغالب مشيئة الطبيعة التى لا تخلق الا بكم الا وهى قادرة على الزامه البكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق

.....

يتلى ابرهيم عبد القادر المازنى

الجزء الثاني

الثمن ٣٠ مليما

الديوان

كتاب في النقد والأدب

يتم في عشرة أجزاء

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد و ابراهيم عبد القادر المازني

محرر بجريدة الاهرام محرر بجريدة الاخبار

فبراير سنة ١٩٢١

فهـــرس

صفحة

١	أدب الضعف	
٣	ترجمة المنفلوطى	
٧	الحلاوة والنعومة والأنوثة	
١٧	العبرات	ابرهيم عبد القادر المازنى
	قصة اليتيم	
٢٢	أسلوب المنفلوطى	

٣٣	شوقى في الميزان	
٤٤	رثاء مصطفى كامل	
	التفكك	
	الاحالة	عباس محمود العقاد
	التقليد	
	الولوع بالاعراض دون الجواهر	
٧٥	رثاء الاميرة فاطمة	
٧٩	ماهذا ياأبا عمرو ؟	

٨٥	صنم الألاعيب	ابرهيم عبد القادر المازنى

— ١ —

ادب الضعف

الادعياء فى كل بلد كثيرون وفى كل قطر كالذباب يعيشون عيالا على الادب وحميلة على أهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون الطنين فى غير هذا القطر ولا يعدو جمهور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ أحدنا العناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخادمه أو ربة بيته أزيلى هذا وأتي عليه بالمكنسة ثم لا يقولها حتى ينسي أمره ويذهل عن خبره . أما فى مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه ونقيضه . يظهر الدعي فيستولى على الميدان ويخر الناس له سجدا الى الاذقان ويباهون به الامم والازمان فان سألتهم فى ذلك وعلته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوي البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحوا أبوابا من التعسف لا تستند الى أصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفند وجروا فى أوهامهم الى آخر الأمد كأنما التوق الى أن تقر الامور قرارها وتأخذ الاشياء اقدارها شيء ليس فى سوس العقل ولا فى طباع النفس . وليس الامر بالهين الذى تتأتى مداواته ويستيسر علاج ما يعرض فى الاراء منه فان الداء عياء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذى صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض فى عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون أن يصغوا لما يقال لهم ولا ان يفتحوا للذى تبين أعينهم أو يأخذوا لانفسهم بالتى هى أملأ لا يديهم وأعود بالحظ عليهم وحتى صاروا من كل أمر فى عمياء قصاراهم أن يكرروا الفاظا لا يعرفون لشيء منها تفسيراً ويرددوا ضروب كلام ان سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبيينا . وما لهؤلاء نكتب ولا من أجلهم نتكلف أن نكوى عرق الباطل ونخرس ألسنة الكذب والتدجيل وننقض بناء المنكرات والشناعات التى أقامها نفر من الادعياء نشأوا في غفلة الزمن فان من المستحيل أن نرجع بهم الى سن التفكير والبحث والتقصى وحب الاستطلاع ولكنا نكتب ونشرح وننصب الميزان لمن

يحس أنه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجيلهما فيها لا ليغمضهما دونها وأوتى العقل ليتصرف به فى الامور ويتبين النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك حسه ولا يغالط في الحقائق نفسه ولا يحب أن يستسقى إلا من الصب أو يأخذ الا من المعدن مؤثرا الغبينة والهزيمة والفشل على احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن طباعها وقلب الفطر الى اضدادها — لهؤلاء الذين هم معقد الأمل ومناط الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى تكون أضوأ لها وأكشف عنها صابرين على طول تأملهم مغتبطين بعدم قناعتهم الا بالاقتناع. اذ ماخير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة مستبين ؟ ؟

وليس فى مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن الجرى مع الاوهام والذهاب الى أشنع الشناعات واسوأ المنكرات ما عرض لهم فى الادب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم الى الالفاظ وجعل يتبع بعضها بعضاً من غير ان يتوخى فى تنسيقها معنى فقد صنع ما يدعى به كاتباً وشاعرا ومؤلفاً يضن الزمان بمثله ويعيى الامم مكان نده . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج الى تنبيه أو ان يتجشم أحد منا اقامة الحجة عليه والتدليل مع التبسط فى الايضاح وتحرى البساطة فى سوق المبادىء وتفصيل الأصول وما ندرى غداً بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا رأونا ندلى بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار دستوراً معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبدائه غنيان ؟ افلا يعذرون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهي تحسبها أدوات الكر والطعان ؟ بلى ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب وعمى العيون واعوجاج الاذهان

ولماذا لا يرون من أعجب العجب ذلك الذى عليه الادعياء المقلدون فى أمر الأدب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد فى الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة له ثم هو مع ذلك لا يرى الذى تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغربيين اذا اطلعوا على هذه المنكرات الشنيعه التى تتمخض عنها الطبائع الممسوخة

والاذهان المنتكسة ؟ ان الجيد فى لغة جيد فى سواها والادب شىء لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لأن مرده الى أصول الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك الغث غث فى كل لغة فى أى قالب صبيته وسبكته وبأى لسان نطقته

وقد لقينا من التشجيع ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الامال فى صلاح الحال وها كم صنما آخر من معبودات الضئال نهدمه ونلقى به بين الاطلال

ترجمة المنفلوطى

عنى السيد المنفلوطى بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الاول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالى دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنينا هذا الامر الا من حيث دلالته على طريقة السيد فى الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وأمثاله على تأثير الالقاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما ارادوا أن يزفوا الى الناس عرائس افكارهم أو يشيعوا الى قبور صدورهم أموات خيالهم . واذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد أن يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لاثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق وأملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق أن يكون على ظاهر الامر مقدما على سواه وحريا بأن يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى « بنات » عقله ثم نأتى على ذكر رواياته وقصصه فى أثر هذا وذاك على أننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخيرة قبل الأوان توفية للحقوق وبيانا للفروق وكشفا عن الحال وايقافا للقارىء على مبالغ سعة المجال :

***

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء الى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة وأربعين عاما من أبوين كريمين كرما يشبنه ان أولهما — ولا ندرى ايهما يعنى ولكنه أحدهما على كل حال — ينتهى نسبه الى الحسين بن على جد كل مسلم

ومسلمة ومنافس آدم بكثرة النسل و« تفاقم » الذرية . وثانيهما الى اسرة جوربجي التركية «المعروفةبالشرف العظيم والمجد المؤثل »

ولم ير السيد زاده الله شرفاً ورفعة لسوء حظ القدر ان يزيد على هذا فى بيان نسبه الأشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا تحتمل الايضاح والتبيين كقوله انه « ولد فى منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر » وان اسرته هناك « مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل » ـ فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته تهدى الى معرفة ما هنالك ولكننا نحسبه خشي أن يضل القارىء ويختلط عليه الامر فيتوهمه مقذوفاً به الينا من المريخ ـ والحق ان له العذر فى خوفه هذا اذ ليس فى كتابته ما يدل علي انه مثل ابناء آدم احساساً بالحياة وفهما لها وجريا على سننها واداء لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته فنقول وليته اذ عني بهذه التفاصيل البديهية كان قد ساق الينا ماهو حقيق أن يعين الناقد على تقدير أثر العوامل الوراثية فى تكوين اخلاقه النادرة التى يصفها بانها « انقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائى صلفاً وكبرا وماهى بالصلف ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة من لاتعجبه اخلاقه ولا تجمل فى نظره أطواره وعفة حتى عن مديده الى ابويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وادب وحياء وحلم يظنه الظان عجزا وضعفاً فاذا غضب وقليلا مايفعل فهو الليث قوة وشجاعة وايمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على مايذهب باب الحكيم من حوادث الايام فقد مات له طفلان فى اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة ثم ماتت زوجته بعد ذلك فجاس الي أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء سواه وليس أحقر فى نظره من مدح المادحين له ولا أحقر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض اليه من الكذب وكثيرا ما كنت أسمعه (!) يقول « لاطلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل أويعجب برأيي البليد الى آخر مالا يستكثر على سليل النبوة العربيه والفتوة التركية

ولـكننا بتنا لتقصيره فى ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب فى هذه الفضائل وفى كل هذا الأدب الجم الذى جعله ـ كما يقول ـ « الـكاتب الفريد الذى يحافظ على اسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشئونه سواء فى ذلك المعانى المطروقه لـكتاب العربية الاولى أو التي لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها اسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملـكاته لا عارية من عواريه

وليس فى ان يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببدعة ممن هو كالسيد الشريف المنسب لا يحدث الاعن نفسه ولا يصدر فيما يكتب عن سوى يومـه وأمسه . ولـكن ما هكذا يكتب الناس عن أنفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجمهم ووصف ابائهم . وما للقراء ولاجـدادك الذين لم تزدنا بهم علماً فيشفع لك ما أفدت فى سماجة ما كتبت ولقد قرأنا لجيته شاعر الالمـان الضخم كتابا في تاريخ حياته يقع فى اكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر انه أورد اسم أبيه حتى ولا في سياقة الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولقد جعل وكده أن يشرح لقارئه ادوار نموه العقلى وكيف تكونت اخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو مايعنى قراء التراجم ، أما الاجداد والأباء فـا دام الـكاتب لا ينوي أن يذكر ولا يستطيع أن يعرف عنهم اكثر من الاسماء فخير له وللناس أن يسدل عليهم استار الخفاء حتى لا يجمع الي الجهل أو العجز نقيصة المباهاة الـكاذبة أو عيب الادعاء

على أنه ان فاتنا هذا الذي كنا نحب ان لاتخلو منه الترجمة ولم نعتض منه الا ما هو مشنوء ثقيل على النفس فان فيما كتب السيد الشريف الجليل العربى التركي الحسينى الجوربجي المنفلوطي الـكفاية فانه أعزه الله لم يألنا كشفا عن ارائه وأخلاقه وفضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخائل صدره وهواجس خاطره ولم يضن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل ويشرب ويلهو ويلعب ولأى شيء يطرب ومم يغضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه في غنى عما يبدىء فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها في المقالات !!

ويالها من شجاعة لاتجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه بالصدق فيما نحلها من الشيم! فهل تعرف أيها القارىء من أي ضروب الشجاعة هـذه فان لها لانواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة الايمان ولا شجاعة يبعثها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا شجاعة الطيش وإنمـا هي شجاعة .... الطعـام !! نعم والموائد الممدودة والاخونة المنصوبة . وانك أيها القارىء اذ تذكر هذا القول علينا وتمط شفتيك وتزوى ما بين عينيك لتدل بذلك علي أفحش الجهل وأفضحه بأسرار فعل الطعام . ولـكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى أن يحشى السيد الشريف الحسيب النسيب بعد أن يجمع حول مائدته الاسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض الوريقات القذرة ويملأ لهم بطونهم كنت حقيقاً ان تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . اتراك لم تسمع بالمثل العامي القائل « اطعم الفم تستحي العين » ؟ وماذا صنع السيد اكثر من الجري على السنن العامية فى كل شيء ؟ فى كتابته وفي معاشرته وفى اتقائه الالسن — وهذا هو السر — فاعلمه — فى أنك لا تسمع به فى هـذه الوريقات ولا تراها تلهج به مادحة ولا قادحة

ومن ظريف ما نرويه فى هذا المقام أن السيد سمع بعزمنا على اخراج هـذا الـكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وأرسل يلح علينا فى « تشريفه » فلم ينقـذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف الغدر ونكران جميل مائدته إلا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض الاحيان !

﴿ الحلاوة والنعومه والانوثة ﴾

وبعد فماذا في كتابات المنفلوطى مما يستحق أن يعد من أجله كاتباً أو اديباً إلا اذا كان الأدب كله عبثاً فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيوخنا المائقين يقول « ان فى اسلوبه حلاوة » ولو انه قال « نعومة » لكان اقرب الى الصواب ولو قال « انوثة »لاصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجى فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذى لا نرجو منه خيراً. قال مهيار

فيـارب قالد دمى مقاتي بما نظرت واعف عن قاتلى
هنيئالحبك ـ ذات الوشاح دم طل فيـه بلا عاقل
وحبي ذكرك حتى لثمـــت مسلكه من فم العـاذل

هذا مثال للنعومة ـ كلام مصقول لين الانحدار تستطيع ان تعرف مقدار الصنعة ومبلغ العقل فيه اذا نثرته وتأملت ما تحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر ان وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية مافى الأمران صاحبه اراد القول فى هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد اعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ الى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط فى الرقة يكسب الجمال ويغنى عن الاحساس به فقلب كل شيء وحمل عينه ذنب النظر الي الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا فى اللين وذهابا الى أقصى البدي فى الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولادم مطلول بغير عاقل وانما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول أنه لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطرى ويكفي لادراك مبلغ السخافة أن تتصور مثل هذا المنظر حادثا واقعاً . وأمثال هذا كثير في غزل المقلدين والعابثين لأنهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا فى سبيله الرجوله والعقل

ومهيار بعد من الفحول أو هو على آثارهم ماض . وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين مذهب العرب فى الشعر ومذهب الآريين — أو الفرس فقد كانوا لا يعرفون الاعربا وعجما . يدل على ذلك قوله يصف شعره

حلى من المعدن الصريح اذا غش تجار الاشعار ما جابوا
يشكرها الفرس فى مديحك للمعنى وترضي لسانها العرب

فكانه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ وإكبارهم شأنه وذهاب غيرهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى فى حلاوته وعذوبته كقوله

اذكرونا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نزحا

وقوله :

آه على الرقة فى خدودها لو أنها تسرى الى أكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع فى هذا فما ظنك بالمتأخرين والعابثين الذين افتنوا فى العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل للانسان أنهم كانوا يتبارون ليروا أيهم أعظم تطليقاً للعقل واتيانا بالمستحيل ونسيانا لاحكام الحياة . أما الحلاوة فتجدها في مثل قول الشريف الرضي

انت النعيم لقلبي والعذاب له فما أمرك فى قلبي وأحلاك

وقوله من القصيدة عينها

عندى رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

وليس يمنعك ان تتذوقها من البيت الأول ذكر المرارة فانها هنا أخف ما تكون وليست كل القصيدة من هذه الطبقة ولعل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربي أجدى وأنفع فى تبيين المراد ولكننا لا نحب أن يفهم احد اننا قوم افتتنا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا ان يظن بنا الاعلان عن النفس وان كان لاغضاضة فى ذلك ما دمنا ندعو الى حق وقولة صدق

ومرجع هذه الحلاوة الى ما ترى من التنوع فى الاطراد والى احساس الشاعر

باللذاذة والحسن احساسا هو مزيج من الاعجاب والطلب . خذ البيت الاول مثلا (أنت النعيم) وتأمل اطراد العاطفة فى مصراعيه وتوازن قوتها فى شطريه وكيف أنه مع هذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدمك . ويريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لا اكثر ولا أقل ولو انه كان قال « انت النعيم لقلبى والجحيم له .. فما أمرك الخ » لاحسست التنافر واختلاف القوة فى الشطرين ولما استعذبت منه قوله « فما أمرك الخ » بعد لفظة الجحيم . وتأمل فى عقب هذا قول المسكين شكرى يصف جميلا و يبالغ فى (حسنه)

كأنما صاغكم كيما يحبكمو يافتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله في صدر البيت ـ فانك تحس اذ تنتقل من الشطر الاول الى الثاني كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء البيت انحدارا مباغتا وكأنك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية

وتدبر بيت الشريف الثاني وانظر تحريه الدقة فى العبارة عن مقصوده تحريا اكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون أقوى الالفاظ وأشدها من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما لم يكن يعجز الشريف عن حشره فى البيت لو كان مثلهم فساد ذوق وضعف طبع وسليقة . ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من أخف مراتب الحب وأولها ولا اكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة ومن اشتهائه التقبيل اشتهاء لاينبو مع ذلك فى زمام الارادة فالتناسب تام بين أنواع المعانى والاحساسات المتنوعة التى ضمنها البيت ـ من اعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلة وسلامة الذوق وحسن المعنى فى الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ إلا للفم ومراعاة ذلك وامتناعه عن ذكرها عن بعد

واذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع فقارن قصيدة الشريف الرضي التى يقول فى مطلعها

ياليلة السفح الاعدت ثانيـة سقى زمانك هطال من الديم

بقصيدة الطغرائي التى احتذاه فيها وترسم مواقع اقدامه وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكنا نجتزيء بذكر البيت من قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطغرائي مجاراة له. يقول الشريف

قدرت منها بلا رقبي ولا حذر على الذى نام عن ليلي ولم أنم

فيأخذه الطغرائي ويحرج صاحبيه ان كان لهما وجود

ياصاحبي أعينانى على كلفي بمن تناوم عن ليلى ولم أنم

ويقول الشريف يصف لياته معها

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا على الكثيب فضول الريط واللمم

يشي بنا الطيب احيانا وآونة يضيئنا البرق مجتازا على أضم

فيسطو عليه الطغرائى ويصوغهما فى اربعة ابيات مرذولة

بتنا وبات الصبا وهنا يغازلنا وفرشنا الرمل وشته يد الديم

والليل يكتم سري والصبا كلف بنشر ما كاد تطويه يد الظلم

يانفحة الريح باتت بين أرحلنا بالجزع تسلك بين المذر واللمم

نهبت طيباً وأغريت الوشاة بنا ياحبذا أنت لو لم تقتدي بهم

ويقول الشريف

واكتم الصبح عنها وهى غافلة حتى تكلم عصفور على علم

فيضعه الطغرائى فى هذا البيت المنحوس

وغاب عنا غراب البين ليلتنا فناب عنه عصيفير على علم

ويقول الشريف

يولع الطل بردينا وقد نسمت رويحة الفجر بين الضال والسلم

فيمسخه الطغرائى هكذا

وآذنتنا بقرب الفجر ناشئة باتت تحرش بين الضال والسلم

ويقول الشريف

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع الى قدم

فيأبى الا أن يعف عفته ويجىء بهذا البيت المنثور السخيف

ورق لى قلبه القاسى ومكننى مما أريد فلم آثم ولم ألم

ويقول الشريف فى غير هذه القصيدة

أنت النعيم لقلبي والعذاب له فما أمرك فى قلبى وأحلاك

فلا يرى الطغرائى أن يتركه في قصيدته دون مسخ

طاب الهوى فى الجوى حتي أنست به فهو المرارة يحلو طعمها بفمى

فيخاط ويحسب الشريف الى هذا قصد : ويقول الشريف

ولا استجد فؤادى فى الزمان هوى الا ذكرت هوى أيامنا القدم

والذكري طبيعية ولكن فساد ذوق المقلد الطغرائى يأبى له الوقوف عند حد الطبيعة

تريد أن أستجد الحب بعدهم والحب وقف على أحبابنا القدم الخ الخ

وشتان بين كل بيت ونظيره . كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء وأبيات الطغرائى لا يسيغها المرء الا بعناء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج الي جلاء . ولعل القارىء قد رأى مما أوردنا أن الحلاوة لا تتفق مع العبث والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها.

***

ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة في كلام المنفلوطى سواء فى ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها وقد اسلفنا أن وصف اسلوبه بالنعومة أقرب الى الصواب ولكنه ليس كل الصواب لانه متجاوز ذلك ذاهب الى أدني منه وليس أدنى من ذلك الا الانوثة وهى أحط وأضر ما يصيب الادب ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يلتذونها ويسيغونها ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم إياها أن يشجعوه ويغروه بالكد فى ابراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف

قال المنفلوطي فى مقدمة عبراته :

« الاشقياء فى الدنيا كثير . وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن اسكب بين أيديهم هـذه العبرات علهم يجـدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى »

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا القلب الذى شغل عن مطالب الحيـة بالدق عطفاً على المساكين أمثاله . ولو شاء لقال أن الناس جميعاً كذلك ان كان يريد أن يذهب الى هذا المعنى لان كل أمرىء طالب محروم . ولـكن وظيفة المرء فى الحياة ليست ان يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لان الاصل فى الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهى قائمة على ذلك ولا سبيل اليها بدونه . بل هى تنتفى اذا امتنع وبطل

وهذا شيء يعرفه كل أحد ويحسه كل حي . وقد فطن اليه الاقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمى على ذلك واثباته فى مظاهره ومن أيات هذه الفطنة ــ فطنة عميقة مستوليـة على النفس ــ انهـم قالوا ان فى الوجود قوتين متنازعتين أبدا قوة الشر التى تطفي بالليل وتجاجل فى الرعـد وتقـذف بالصواعق وتبتلى بالجدب والمحل والاوباء والارزاء والفناء وما يدخل فى ذلك ويتفرع منـه وقوة الخير التى تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة الي آخر هذه المعاني وقد رمز الفرس للأولى بأهرمان وللثانية بأرمزد

ومثل هـذا واضح فى جميع الاديان وان تغيرت الاسماء وتبـدلت النعوت وما ابليس ان فكرت الا اسم آخر لاهرمان والارمز لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لهـا .

بل ذلك ملحوظ فى خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هـذا وفى أوهام العامة التى تعزو الامراض الى فعل الشـياطين وفى خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير فى دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والغاب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ أليس هذا أثرا من الاعتقاد الاول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولـكن هذا

الذى يحسه الأطفال والعامة والذى فطن اليه الاقدمون السذج بغرائزهم وفطرهم السليمة لا يدركه المنفلوطى المسكين الذى يحسب ان ليس له من عمل فى الدنيا إلا البكاء على الاشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجوالةفي جوف الثرى

وعسى قائل يقول : أن هذا منه فرط حب للانسانية وهى فضيلة لا يقلبها رذيلة أن صاحبها بالغ وغلا فى الامر لانه انما يغرقفى النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد فى التصوير ليكون أبلغ في التأثير ويتناهى فى الدعوى استدناء للغاية القصوى

هكذا يصنعون اذا ارادوا التضليل أو الاعتذار لانفسهممن الانخداع بمثل هذا التدجيل وهوشعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قديقطع استقصاؤها عن الغرض لان الانتصاف منهالايتأتي إلا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه فى ضوء الاستقراء الحديث

ما هى أخلاق المنفلوطى ؟ هى بالفاظه ـ أو إن جادل فيما ارتضى أن يوصف به من الالفاظ ـ انقباض عن الناس ووحشة ـ عفة حتى عن مد يد الى أبويه ـ كرم فى الخلق طالما كان سبباً في وصول الاذي اليه ـ حلم يظنه الظان عجزا وضعفاً ـ صمت طويل يحسبه الناظر عيا ـ مارؤى يوما من الايام ملما بما يفسد عليه دينه أومروءته صبر على ما يذهب باب الحكيم ويطير برشد الحليم (١) مات له طفلان فى اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما ـ وليس أحقر فى نظره من المادحين له ولا أصغر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه ـ لو ان الناس جميعاً أجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته ـ ليس أبغض اليه من الكذب ـ يحب حتى العتاب المروا لتقريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا ـ يطلب من الناس غير مايطلب بعضهم من بعض ـ ان كان فى اخلاقه مأخذ ففي هذا الخلق خلق

---

(١) قال لسنج الشاعر الناقد الالمانى » من لا يفقد عقله أمام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده »

النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم ـ وطنى يتهالك وجدا فى حب وطنه ويذرى الدمع حزنا عليه ـ الخ

ولاتنس أنه جرىء جرأة معدومة النظير في التقحم على حياء الناس بهذه النعوت الغالية وانه محب مفرط الحب للانسانية — فيلانثروبست — وان أسرته مشهورة بالتقوى وان ابناءه يموتون فى غير السن التى يكون فيها الأهمال والجهل سبب الوفاة المباشر فى الأغلب والاعم .

فكيف تصف هذه الاخلاق أيها القارى ؟ ؟ إما ان تكون مصدقها فننظر فى دلالتها أو مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رأيا لك

أخلاق نادرة ؟ نعم ليس أندر منها مجتمعة وان اتفقت للناس متفرقة ! ولكن الامر أكبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هاك دلالة هذه الاخلاق الرائعة النادرة في نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى فى الاغلب من اعراض الحالة التشنجية وكان الغرور وكثير من الخصائص البسيطة أو المركبة توجد في حالة غير عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبي غير سليم فليس من المدهش ان يكون البخل من أعضاء ما يسميه « فيرى» اسرة الامراض العصبية .وحب الانسانية ـ فيلانتروبى ـ نفسه مما يجرى هذا المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجون جبارا فى بيته وكان له ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية أيضاً وشرح هذه الحقائق فيما أسلفنا عليه القول علي الارادة . وذلك أن بعض مراكز المخ ـ واحدا أو اكثر ـ تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات أو الاجابة عليها فتسود فى حيز الادراك طوائف معينة من الاراء أو تصير الغلبة لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم ـ كما يقول المثل ـ لا يصغون الى داعى العقل ولا يحسون الا أنفسهم ومصالحهم . وآخرون يبلغ من تضحيتهم بالنفس وانكارهم الذات أن يخرجوا ـ بغير مبرر معقول ـ عن كل متعهم وكل ما ملكت أيمانهم لفائدة جيرانهم مثلا ، وكلا الفريقين من مرضي الاعصاب كالمعودين أو المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية تصاحب الضعف

أو المرض أو الاضطراب العصبي وعلى العكس من ذلك تري الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب الرأى »

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كأنما كتبها صاحبها لما نحن فى صدده وأيهما خير فيما يري لصاحبه ؟ ان نؤمن بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادره والخلال الغريبة فيلزمه حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى أعصابهم أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وان ما به ليس ايثارا وحباً للانسانية متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها في الكتابة وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم واستصغار لاحلامهم واستهانة بعقولهم؟؟ لسنا نتشبث بأحد الحكمين فليختر القارىء لهذا الكاتب أخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد واحدة

« الاشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم »

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما احلكها وأحسس بالعجز المطاق والقصور التام. وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التى تغشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب فى حياته أو في علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتى لا تمنع ان يكون الانسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الامور صادق الوزن لاقدارها . نعم من الطبيعى أن يكتئب مثلا من يحتسب طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأنس الرشد من سماته أو من يرى نفسه منبوذا من الناس لفقره أو وضعة قومية فى أبيه أو من يعنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء اليائسه التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجزة ودار أيامى ومفجعين ينقطع البكاء عليهم — أى تعليل لها من الاحوال التى تكتنفه هو أو سواه ؟ وأى باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشل ولا يخرج الامر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب في المفتاح كأن يكون مكسورا أو ان تكون

أنبوبته مسدودة أو ان تكون أسنانه بالية وإما ان يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط فى جوفه أو أن يكون شىء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل او أن يكون الصدأ عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بانبوبة المفتاح عن حديدة القفل أو أن تديره فيه مقلوبا أو ان لا تبالغ باسنانه اللسان ولا يكون العيب فى هذه المرة راجعا الى القفل أو المفتاح بل الى الخطأ فى عملية الفتح .

أوهبنى غضبت . فالامر فى هذه الحالة لا يعدو أحد فرضين: ان يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيىء فاذا كان إحساسى مناسبا لدرجة الاساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعياً ولكن لنفرض ان الامر جاوز المعقول وان الغضب هاجه ماليس فيه اساءة وهو الفرض الآخر فنعود الي مثال المفتاح والقفل ونقول اما ان تكون الظواهر الخداعة او الانباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد الى الاساءة وتعمد الايذاء فيثير فى نفسى ما يحيط بى مثل مايثيره الايذاء لو كان واقعاً ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعاً الى الوسط والعيب عيب القفل — او يكون العمل فى ذاته غير مقصود به الا الخير كان يرتب لك خادمك اوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت فى يومك من النصب او لعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك ويبلغ غضبك مبلغا لا يتناسب مع الظروف — اى لا يلائمها وفى هذه الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه الي علة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يهيج فاذا اصبحت فى اليوم التالى وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهدأ ثائرك وبدالك تهورك فقد اعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك فى الصباح كما كان فى المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن اعادة التوازن بينهما يدل على ان «عملية» الموازنة أو الملاءمة مضطربة

وهذان المثلان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا الى علة عضوية او الى ان للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاء او هو

يجهلها أو لا يعرفها معرفتها وفى كلتا هاتين الحالتين يكون العيب فى القفل أو المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الاحوال الا ما يستطيع أن يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا من الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا أن يلائم بين نفسه وبينها فأن الفشل فى هذه الحالة لا يكون مرجعه الى عدم كفاية أو عيب فى هذا العامل او ذاك بل الى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه ابدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الاجهزة العصبية والاضطراب فى السلوك والاضطراب فى الادراك ويدخل فى هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهي أشياء على أوضح ما تكون فى قصص المنفلوطى كما سترى فيما يلى

العبرات

قصة اليتيم

ونعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بدأناه من الكلام على عبراته فنقول انها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن أمثاله الضعفاء الذاهبين مذهب التصنع والافراط في الرقة والانوثة والباقى موضوع وهو فى كليهما ملفق مستحيل التلفيقات — حتى فيما هو مترجم منها يأبى له ذهنه المنتكس الا أن يغير ويبدل تبديلا كبير الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته فى كل قصة تقريباً بينما هو جالس فى مكتبه الذى كأنما صار ملتقي كل صوت ولا قط كل نبرة وموجة أثيرية اذا به يسمع انينا أو حنينا أو صوتا خافتا أو توجعا أو زفيرا أو نهيقا أو شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات أوهامه ومنكرات أحلامه — من العمر مقتى يتوجع على سرير أو حصير فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر أنوثته ثم يموت الفتى — وهو مالا بد منه فى كل حكايات المنفلوطى فما أعظم شؤمه على أبطاله — فيغسله ويلفه فى الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه التى كأنما لها « زر » فى تضاعيف ثيابه يضغط عليه

فتتحدر وتسيل وإن كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا فى اسبوع واحد !!

فبالله ما لهذا الحانوتى النذابة وللادب الذى هو حياة الامم وروحها وباعث القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقها وحافزها الى أجل المساعى ؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع أن يتعظ بمصير أبطاله المخنثين — ان جاز الجمع بين النعتين — وبموتهم في شرخ الشباب وميعة العمر وكان فى وسع قرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهم ومرض نفوسهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسوجين على منواله وان اخوف ما نخاف على هذه الامة أن تجد هذه الجراثيم ثرى صالحا فى نفوسها فى وقت هى أحوج ما تكون فيه الى من ينذر فيها بذور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العاليه .

كتب جيته الشاعر الالمانى رواية « أحزان فرتر » وهو فى التاسعة عشرة من عمره أى قبل أن ينضج ويستكمل الرجولة فراجت واشتهر امرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع فى كل زاوية فى العالم الغربي ونقلت الى جميع اللغات الحية ولكن واضعها الذى كان حقيقا أن يزهي بهذا النجاح وان يفتتن بما وفقت اليه باكورة أعماله من الذيوع واستفاضة الذكر وان يغريه ذلك بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة — ظل الى ان مات لا يندم على شيء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من عمل له خجله منها حتي لقد تمنى لو استطاع أن يجمع كل نسخها من ايدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟ لأن فرتر بطلها انتحر من أجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة أجل من ان يقطع المرء حبلها لخيبة امل كائنا ما كان أو ان شئت فقل هى اهون من ان يكبر المرء أمر سعودها ونحوسها الي هذا الحد . وان مما يصم الرجولة ولا شك ان لا يكون صحيح الادراك للأمور وان لا يستطيع ان يلابس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين الوسط .

فأين تخنث العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقدر واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول في الدنيا اشقياء كثيرون فلا بك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس طالعهم ولا نعهم الى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا

ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطيء ومصيب وناهض وكاب عاثر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يعطلها دينها بل يؤديه اليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور أن افلح ومعذور ان أخفق

جيته ـ تلك الصخرة القائمة فى لج الحياة تناطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهى وطيدة لا تلين ولا تساقط على الصدمات والاهوال ـ هو مثال الرجل الخليق بالحياة هو البطل الذي قرت عنده ثورة « كارليل » الهائج فى ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا يذوق طعمه الا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم احدى روايات جيته إلا ان يخضع للجامه ويستقيد لعنانه والا ان يخرج عن طبيعته ـ ان صح هذا التعبير ـ وينسي جموحه مع المعانى وركضه فى حلبة متوعرة من الاداء فجاء اسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق المتحدر فى سهل دمث من الارض،

ولعمرى ما أبعد البون بين أدب تمليه الحياة المتدفقة وصحة الادراك وبين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه العبرات والنظرات والسخافات والتافيقات والمنكرات التى لا نعرف لها مثيلا فى كل عصور الأدب التى مرت بالامم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « اليتيم » التى صدر بها عبراته وموضوعها أن فتى فى العشرين من عمره مات ابوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا فكفله عمه واكرمه واحسن اليه إحسانه الى ابنته التى كانت فى مثل عمر الفتى فشبا عشيرى صفاء وخدني مودة ووفاء ثم ذهب العم الي جوار ربه بعد ان اوصى زوجته ان تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم ـ اما كما كان هو له ابا ولكن الزوجة لم تلبث ان تنكرت للفتى فزعمت انها عزمت ان تزوج ابنتها وانها ترى ان فى بقائه بجانبها ما يريبها عند خطيبها وانها تريد ان تتخذ للزوجين مسكناً ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وامرته ان يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الامر واسودت الدنيا فى عينيه لانه يحب الفتاة حباً لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها بل ولا هو نفسه إلا فى هذه الساعة . فانسل من البيت ليلا وآثر ان

يستشرد ثم سكن الغرفة العليامن المنزل المجاور لمنزل المنفلوطى ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة اشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه الى اخرى ثم شعر بسكون فعاد الى الحجرة فلزمها هى ومدرسته ولم يبق من أثر لذلك العهد القديم الا نزوات تعاود قلبه من حين الى حين ثم ان خادمته فى بيت عمه اهتدت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه أن يأتى ليودعها قبل موتها ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفنه المنفلوطى معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والآن فانرجع أيها القارىء الى مثال القفل والمفتاح . ليس فى المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شيء من الآفات التى تقعد بالمرء عن ملابسة الحياة على الوجه الصحيح فاذا كان الامر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطى الذى نسى أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس فى القفل عيب . لأن الظروف المحيطة بالفتى والاحوال التى كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادي السليم عن مكافحته ولكى يقتنع القاريء بما نذهب اليه نجاوز الاجمال الى التفصيل

ارادت امرأة عمه ان تزوج ابنتها وهى رغبة طبيعية تحسها كل أم ولم تكن تعلم أن الفتى يحبها لانه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى

ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمى فى نفسى وداً واخاء اوحباً وغراماً ولكنى أعلم انه ان كان حباً فقد كان بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يوماً انى أحبها لاني كنت أضن بها وهى ابنة عمى ورفيقة صباى أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الاليم فى قلبها ، ولا قدرت فى نفسى يوماً من الايام ان أصل اسباب حياتى باسباب حياتها — ولا حاولت فى ساعة من الساعات ان اتسقط منها ما يطمع في مثله المحبون ولا فكرت يوماً ان استشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لاعلم أى المنزلتين أنزلها من قلبها منزلة الاخ فاقنع منها بذلك أو منزلة الحبيب فأستعين بارادتها على ارادة

أبو بها »

فما ذنب امرأة عمه اذا كان قد شاء ان لا يتكلم أو يقدر أو يتسقط أو يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقوله ؟ وهو يعلم ان لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمته لكان لها شأن آخر معه ولا يعقل ان يحسب المرء ان الناس اعرف منه بخبيئة نفسه

اذن فليس فى رغبة امرأة عمه ان تزوج ابنتها شيء يستدعى منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرد والانسلال تحت الدجى طلبها اليه ان يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه على ان تقوم له بنفقاته فيه حرصاً على الفتاة ان يريبها شيء من وجوده الى جانبها عند خطيبها . فانه موقف معقول واحساس طبيعي . ولا شك ان فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليقاً ان يجعله يسيغها . فلماذا انسل وآثر الاستشراد والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد ان سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه ان مات ! اليس الواضح البين أنه عجز عن الملاءمة بين نفسه وبين هذه الاحوال والظروف عجزاً ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس فى شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله بالغاية منه احساساً واضحاً ويدركه اتم ادراك والذي لا يفتأ يتطلب التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين الذى لا يدرى أهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته أم حب الرجل للمرأة . ولا يقدر فى نفسه أن يصل اسباب حياته باسباب حياتها ولا يحاول ان يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم ولا يروق من تعلموا من هذه القصص ان يعدوا الهوى العذري الذى لا وجود له فى هذه الدنيا الدنية مثلا ليس أعلى منه للحياة ـ واللين الذائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس ـ والانقياد للمرأة كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجوله وآيات الفتوة والبطوله دع عنك الاضطرابات

البهلوانية من جسمية وعقلية والزفرات والانات والدموع وتقليب الاكف والذهول والنحول والاصفرار والاطراق ونكت الارض والكلام الذى لا يقوله ولا يفهمه عاقل والنظرات الشاردة البلهاء فى المجالس والمحافل وسهر الليل ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل اطراف الاصابع للاشباح والخيالات وتحميل الرياح انواع السلامات والتحيات الطيبات المباركات ...

لا . لايرضي هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لانهم لايطلعون على الحياة الا من منظار المنكرات التى تصفها لهم هذه الروايات ولا يفكرون أو يحسون أو يعملون الا على مثال أشخاصها ولا غرابة فى ذلك فان من لاتؤهله تجاريبه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائى لايسعه الا ان يسلم بصدقه ويستمد رأيه في الحياة من كتابته ويتخذ اشخاصه قدوة تحتذى وتقلد . وهى نتيجة يعلمها من له أقل الما بعلم النفس وبتأثير الايحاء لاسيما فى الضعفاء والشبان والنساء ومرضي الاعصاب

واذكر على سبيل التمثيل لتأثير هذه القصص المنحوسة أني أعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه وهواه فى صدر ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى ان يكون على رأس فرقة من « البوليس » السري يطارد المجرمين. ذلك لان هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان وأخصها الحب بتنبيهها مركز التوليد قبل الاوان وقبل ان يكون الباعث على الحب هو النضوج الجنسى في الفرد

٥

﴿ اسلوب المنفلوطى ﴾

أما اسلوب المنفلوطى فى هذه القصة وفي سواها فاسلوب رجل لايبالى من أى مدخل دخل على القارىء ما دام يقدر ان سيصل منه اليه ولا أى بلاء يهديه فى احتياله ويقحمه عليه واذ كان يعرف من نفسه التلفيق والتصنع فهو لايزال

يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التأكيد والغلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس أدل منه على الكذب والتزوير لما وقع فى وهمه من انه يكسب الكلام قوة وشدة لا يفيدها أن يلقيه ساذجاً ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه انه من المحسنات اللازمة للصقل وان العبارات بدونه تكون مبتورة والجمل لا يجرى فيها النفس الى أخره دون توقف واعتراض ومع ان قصة اليتيم في تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فان فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقاً ليس من بينها واحد لا يكون الاسلوب أسلس وأطبع بدونه . لكنه ذهب الى المبالغة في كل شيء وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلباً للتأثير من طريق الافحاش فى التأكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارىء فى أى كتاب يفتح من كتب الادب

ومعلوم ان الكلام لا قيمة له من أجل حروفه فان الالفاظ كلها سواء من حيث هي الفاظ وإنما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معناه لا من أجل جرسه وصداه والا لكان ينبغى ان لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلا بد ان يكون وراءها شيء وان المرء يرتب المعاني اولا في نفسه ثم يحذو على ترتيبها الالفاظ وان كل زيادة فى اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة فى المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه من أخذ عن نفسه وغيب عن عقله و بلغ من خلال الرأى ان راح يحسب أن تأليف الالفاظ تأليفاً طبيعياً مطردا خالياً من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير. وينسى المسكين ان كان كلمة يستطيع القاريء أن يسقطها بدون خسارة فى المعنى أو تعويق لتحدر الاحساسات أو أفقا رلغناها ـ كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب فان العالم أغنى فى باب الادب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه وليس شيء أحق بان يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الاداء ولكن هذا كلام

لا يفهمه المنفلوطى لان اللغة عنده ليست الازينة يعرضها وحلى يخيل بها لا اداة لنقل معنى أو تصوير احساس او رسم فكرة ومن اين له أن ينزل اللغة هـذه المنزلة وهو لا معنى في صـدره ولا فكرة فى ذهنه .

وهذه أمثلة للمفعول المطلق في كتابة المنفلوطى وكلها لا ضرورة اليها ولا داعى الا من الرغبة فى تأكيد الغلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الاغراض الأخرى .

١ ـ وقلت لابد ان يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه (ذوبا)

٢ ـ فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض

٣ ـ ثم لم أزل أراه . . . . . أو منطويا على نفسه فى فراشه يئن (انين) الوالهة الثكلى

٤ ـ وأتمنى لو استطعت أن اداخله (مداخلة) الصديق الصديقه

٥ ـ وقد بلغ الامر (مبلغ) الجد

٦ ـ وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجا) شديدا

٧ ـ فشعرت برأسه يتهب (التهابا)

٨ ـ واذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه (موجا) ـ يصف تحوله .

٩ ـ فاستفاق قليلا و نظر الى (نظرة) عذبة

١٠ ـ فتنهد طويلا و نظر الى (نظرة) دامعة

١١ ـ أصبحت معنيا بامرك (عنايتك) بنفسك

١٢ فانزلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى

١٣ ـ ١٥ ـ فعنى بي (عنايته) بها وأرسلنا الى المدرسة فى يوم واحد فانست بها (انس) الاخ باخته وأحببتها (حباً) شديداً

١٦ ـ ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقدا) لا يحله الا ريب المنون

١٧ ـ فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كأسها

١٨ ـ ثم انسللت من المنزل (انسلالا) من حيث لا يشعر أحد
١٩ ـ وهكذا فارقت المنزل ... (فراق) آدم جنته
٢٠ ـ فرحات (رحلة) طويلة
٢١ ـ هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه الى حيث لاأعلم له مكانا ثم دارت بى الارض الفضاء ـ يعنى غرفته ـ (دورة) سقطت على أثرها فى مكانى
٢٢ ـ فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها
٢٣ ـ وما وصل من خديثه الى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت ان كبده قد ارفضت
٢٤ ـ وان الضربة التى اصابته قد سحقته (سحقاً)
٢٥ ـ ٢٦ ـ أشعر برأسى يحترق (احتراقا) وبقلبى يذوب (ذوبا)
٢٧ ـ ثم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقاً ولا ندرى الى اى رقم يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم أنفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكاتب منه بصيغة المفعول المطلق. ولنعرف هل الشأن واحد فى كل كتابته ام هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة اكثر مما استعملها العرب جميعاً !

ولعل القارىء لاحظ فيما اوردنا من الامثلة كثرة النعوت والاحوال كقوله « خرجت منه ـ يعني المنزل ـ شريداً طريدا حائرا ملتاعا » وقوله « تركنى فقيرا معدما لا أملك من متاع الدنيا شيئاً » وقوله وراء هذا المنظر الفارع الشاحب نفس قريحة معذبة » وقد يعلم القارىء اولا يعلم أن هذا الاسراف فى النعوت من دلائل الضعف وفقر الذهن لان الكاتب أنما يرصها واحدا بعد واحد وفى مرجوه أن يوافق واحد منها محله وان يقع فى مكانه ولكن المطبوع يعرف ماذا يأخذ وماذا يلقى وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات من علامات الوهن لان الكاتب الضعيف لا يستطيع أن يتحرى الدقة اذ كان لا يدرى أى الرموز اللفظية أكفل بالعبارة التامة عن المعنى المراد فهو من أجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الالفاظ بلاحساب

مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين الالفاظ فى ذاكرته وبرنين الاصداء المتقطعة للاصوات المألوفة . وهناك أمر آخر وهو ان الترادف فى اللغة من الاكاذيب الشائعة اذ ليس ثم فى الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحدا على وجه الضبط وما من مترادفين يزعم الزاعمون انهما سواء فى المدلول الا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر فاذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعانى متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعنى على التحقيق وأى مدلولاتها المتفاوتة يقصد اليه ويريد منا فى فهم المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله فى التصوير والرسم فكما أن المعول فيهما ليس على كثرة الالوان بل على أصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعنا الخفاء واشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوي غثى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأى حماقة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق اليه وان كان على هذا لا يحتاج إلا الى أيسر فكرة وادنى نظرة وهو ان اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء فى ذاته ولا معنى له فى نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الالفاظ بعضها الى بعض كالاون فى ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئاً الا بعد أن يأتلف مع سواه ويجرى كل الى اخيه مجراه وليس لغير ذلك مساغ فى العقل أو مجاز الي الفكر وقيام فى النفوس فلا كتابة حتي يكون معنى هو المزجي لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفى جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئه وحسنة أو قبيحة سخيفة . والا فأن أحدنا لا يعجزه أن يعمد الى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الالفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وانما التأليف والتركيب والافتنان فيهما والقدرة عليهما هى آية هذه السعة والطول والكثرة فلا تجعل بالك الى الالفاظ

اذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ولـكن اجعله الي طريقة تأليفه الـكلام فان رأيته يدور منها في حلقة لا يكاد يعدوها حتى يكر اليها فاعلم أنه ضيق المضطرب محدود المجال ضئيل الحال والق بعد ذلك الفاظه من اى حالق شئت

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هـذا التركيب : « فعدت به حزيناً منكسرا وما على وجه الارض أحد أذل منى ولا أشقى » — « ومارئى مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكياً » أو هذا التأليف « فما هو ان مرت ايام الحداد حتى رأيت وجوهها غير الوجوه — « وماهي الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضربا ته » ونحن فانما نمثل ولا نستقصي ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المجال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر — والالفاظ كالحجارة فى محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها فى راحة وانما الـكتابة مجسها الحصافة والتثبت فى انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينهـا

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التخنث فى كتابته وملفق مستحيل التلفيقات وانه لا يزال يعالج التأثير بالتطرى والرخاوة فى العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتأكيد فى صوغ الـكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا أن ننظر كيف يسوق القصة أى في الاسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها فى تناول الموضوع وعرضه

وقد ألف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تأليف للـكلام على معانى النحو ونحن نريد أن نلقى على هذه القردة درساً فيما يفيده صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة أفق الفكر وانا لنعلم انه لن يفيدهم إلا الحسرة على ما أضاعوا من العمر وجنوا من السوء والخبث فى هذه الأمة التى نكبت بهم على قدر سدر أعينهم وضلال أفهامهم ولـكننا ما قصدنا قط الى امالتهم عما هم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصير من له طبع من الشىء اذا قدحته ورى وهدى من له قلب اذا اريته رأى

ونمهد لما نريد تبيينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما لا يدركون الشىء أو يصدمهم فنقول أن ههنا فى ناحية من الطريق شرطيا واقفاً يرقب الحركة ويلاحظ

العادين والرائحين والراكبين والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزين الى الشر الى اى هو تابع له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى يديه وتقيس النصب الذي ينبغي أن يعانيه الى القدرة اللازمة التى لا تؤاتيه فتعطف عليه فى محنته وترثى له فى وقمته وتصوره وأنت ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا اوامره ونواهيه — هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب المضحك فى هيئته وفى تراخي همته وبطء حركته أو عدم التلاؤم والتناسب فى بزته ووفاء قامته وتخاذله فى مشيته وتثاوبه واستناده الى الجدران وذهول نظرته أو حواره مع الباعة وتأتيه الي غايته وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جذبته أو تواريه فى الدروب ووراء العمد اذا جد الجد بالطعام فى « نقطته » الى آخر ذلك ثم تصوره صورة تركبه فيها بالدعابة فانت قد تناولت موضوعه من جهتين متباينتين اذ كنت قد نظرت الى أمره وحاله نظرتين مختلفتين كنت فى الاولى جادا وفى الأخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين معبرة عن اعتبارك اياه ناطقة بالغرض منها فوجهة النظر الى الموضوع والطريقة التى تتحراها لغايتك هى مانسميه اسلوب التناول ولا شبهة فى أن المرء ينظر الى الامور من جهات معينة — من ناحية الجد أو الهزل أو المألوفية أو الشذوذ أو الجلال أو الحقارة وليس يعنينا من أى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنينا مقدار ما في سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ التغلب على الصعوبات . ونقول مبلغ التغلب علي الصعوبات لان القصصي لا تظهر قدرته فى المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون اشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفى المواقف التى تتطلب أدق النظر وأشق التمييز واصح العبارة

فكيف تناول المنفلوطى موضوعه وما هى الفكرة العامة التى نظر بها فيه وبماذا اعدها وكشف عنها وهل اللغة التى استعملها صادقة وهل السلوك الذى عزاه الى اشخاصه مما هو معهود في الآدميين كما نعرفهم وما مبلغ إسرافه او قصده وما مقدار خبطه وتخليطه او اصابته وسداده.

عسي قائل يقول. انك تضعه فى ميزان لم ينصبه لنفسه ولا كان في باله ولا جرى له

هو وأمثاله فى خاطر وردنا على هذا المحتج أن الادب لا شأن له بهذا الاهمال أو الجهل ولا اعتداد فيه إلا بالصلاحية للحياة وهي هى ميزانها أبدا واحد لا رفق فيه ولا هوادة فان خفتم علي صاحبكم ان تشيل به الكفة فاخرجوا به من هذا الميدان ولاذهبوا محمودين مشكورين على النكوص .فان ابيتم الا ان تعدوه كاتباً اديباً فلامسمح عن قذفه فى هذا الاتون الحامى لنعرف من أى معدن هو وانتم بعد خلقاء ان ترتضوا لصاحبكم ما نرتضى لأنفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش فى عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيقات . عصر تعتصر فيه العقول ويستنفد فى حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطاً زاخر العباب يضطرب بنا متنه فى عشى ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب فى أثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون ان الادب والفلسفة ـ أو النظر المخلص الصحيح أن شئت ـ لا يتفقان وأن الغائص على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون أديناً وان الاديب لا يكون متفقدا ورائداً وان ما وصل الله من الخصائص وألفة يجب ان يقطعه الانسان ويعادى بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور قد سقط فى هوة الابد وجاء زمننا الشادى بعلاقة الطبيعة بنفس الآدمي الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان والمريغ وراء السماء سماء وبعد الآباد اباداً ، المصيخ الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر »

ونعود الى صاحبكم المنفلوطى — وما اهول هذا الانحدار ـ فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصها الكفاية وفوق الكفاية ولقد كان حسب سوانا فى غير هذا البلد ان يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكنا وطنا النفس على الجلد ورضناها على السكون الي ما تكلفنا اياه حداثة العهد بالادب الحى يحسب المنفلوطي أن تكلف التفصيل فى المحسوسات مظنة الاجادة وفاته ـ وأني

له ان يفهم هذا ـ أنه لايعجز أحدا أن يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل أم قصير ونحيل أم بدين وهـل فى يده كتاب أم عصا ونائم هو أم جالس وانما محك القدرة فى تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لا ظواهر الاشياء وقشورها وفى رسم الانفعالات والحركات النفسيه واغتلاج الخوالج الذهنية وماهو بسبيل ذلك .

أما تفصيل المغلوطي فلا خير فيه بل الخير فى اجتنابه وتحاشيه وليذكر القارىء أن هـذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يدعي انه كان شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب ـ وهو بطل القصة ـ في البيت المقابل له فى الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق النزلة الاولى بين شيوخ الرواية

« كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فأرى أمامى فتى (شاحب) الوجه منقبضاً جالساً الى مصباح منير فى احدى زوايا الغرفة (ينظر فى كتاب أو يكتب فى دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درساً) فكيف استطاع هذا التمييز بين الاستظهار والاعادة وكيف رأي شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟ ولـكن هناك ما هو أدهى :

« عدت الى منزلى منذ ايام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفه مكتبي لبعض الشؤن فاشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصباحه وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لما ألم به من تعب الدرس والآلام السهر قد عبثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به فى فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع رأسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ماحا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث أن عاد الى نفسه »

فأولا لماذا دس فى الجملة قوله فى أولها عدت « منذ أيام » وهي لا تفيد ولا يمكن أن تفيد شيئاً سوى أنه يريد أن يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارىء ثم هل تدرى أنه أحس انه موشك ان يقول شيئاً مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضاق وحتى لو كان

الوقت وقت الظهيرة المتقدة الملتمعة لا يسمح بأن يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة أو جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصابه لم يجد ما يخرجه مما اوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير أن يقول ان الفتى رفع رأسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت ايها القارىء هل قنعت أم نزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل نخذ ثالثة الاثافى : ذهب المنفلوطى اليه لانه سمع « فى جوف الغرفة انة ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم

« فامررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه موجاً فامرت الخادم أن يأتينى بشراب كان عندى من أشربة الحمى فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلا »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا محادثته اياك لم تره وبالجسم لو تؤكأت عليه لا نهدم فاما القميص من الجلد يموج فيه البدن فلم نكن نتوقع ان يسمعه احد إلا فى مستشفى المجاذيب ! ومع كل هذا النحول احتاج صاحبكم المنفلوطى ان يمر نظره على جسم الفتى

ولست احب ان انغص على القارىء كتابنا بكثرة ما اورد من هذه التلفيقات المنكرة ولكنى اسأله الصبر على هذه الجملة ايضاً — دعا المنفلوطى الطبيب فجس المريض وهمس في اذنه ان العليل مشرف على الخطر — ولا عجب ان يصير الى هذا المصير الخبيث بعد ان جرعه المنفلوطى — شراب حماه — ثم دفع اليه المنفلوطى الأجر واحضر الدواء

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين اسقيه الدواء مرة وابكى عليه اخرى حتى انبثق نور الفجر »

والعادة ان الاشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية) يحددها الطبيب ولكن الظاهر ان طبيب المنفاوطى امره ان يعطيه الدواء بعد كل ،.... بكاء ! ؟

ومع ذلك فاذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفاوطى مات له طفلان فى اسبوع

واحد « فسكن لهذا الحادث (سكونا) لم تخالطه زفرة ولم تمازجه عـبرة على فرط حبه لها وتهالـكه وجـدا عليهما » ؟ ؟ ؟ وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس الى الناس يحادثهم حتى كان المرزوء سواه .

وبعد ان استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب المنفلوطى عليه وبلا من الاسئلة وهو يعلم أنه فى سياق الموت (فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رأني فقال أنت هنا ؟ قلت نعم ارجو أن تكون أحسن حالا من ذى قبل قال ارجو أن أكون كذلك قلت هل تأذن لى ياسيدى أن اسألك من أنت وما مقامك وحدك فى هذا المـكان وهل أنت غريب عن هذا البلد أو انت من أهليـه وهل تشكو داء ظاهرا (يالعمى) اوها باطنا وهل لك أن تحدثنى بشأنك وتفضى الى بهمك كما يفضي الصديق الى صديقه فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب أن الفتى لم ويصفعه ماذا كان يخشى المسكين لوفعل وهو ميت لامحالة ـ بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى انتهي بين يدى هذا الحانوتى بعد أن فرغ من الحديث الذى يملاء احد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه فى ساعة الموت ! وما أخلق هـذا الادب الميت بأن يروى عن المحتضرين ؟ وما أحق أهـل الفتى أن يطالبوا المنفلوطى بدمه ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

شوقى فى الميزان

٢

عرضنا (شوقى) فى الميزان لأول مرة فارتج به ارتجاجاً عنيفاً وايقظه من غفلة كان فيها سادراً وماهو إلاان حط به ثم شال حتى تمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسرته : «هبونى لست بالشاعر أليس لى فخر آخر ادل به ؟؟ »

نقول أجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لاربعة أجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره فى اوانه ـ اسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه في اسبوع أو أقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارىء واحد وتوالى الطلب له فى المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الادب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضى ذوي العقول المتزنة والفطر المستقيمة والاطلاع المجدي وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم فيه جميل . ومنهم اذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون . وطائفة اخرى حظها من السماع اكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفوعة بالدهش اميل منها الى المنافرة والعنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطأ ويتهم ناقدته بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التغبير ، وفى هؤلاء أمل لا يضيع ولا سيما بعد هدأة الدهشة وتطامن المفاجأة لان نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة ان اثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته أو يعسر عند اليأس منه نبذه . واما التذمر فقد استقبلنا معظمه

من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ونعنى فريقى القراء ـ وبالحرى المتحدثين ـ الذين لم نوجه اليهم خطابنا . وهما فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فراراً من تهمة الجهل والغرارة ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العاديت والخطوطات أو بتربية الديكة ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التى فتن بها . ومن أظرف ما يروى عن أحدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التى أقام لها الازهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن باضافه فى تلك المناحة فظن ـ صان الله لشوقى اعجابه ـ اننا انما انكرنا سكوته عن القطن واردنا منه ان يذكره فقال متعجبا : وهل كان القطن (طالعاً) وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟ ؟

والفريق الآخر من الساخطين هم اولئك الذين عرفوا بانهم شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فما رأينا أحرمن سخطهم ولا اكثر تصنعا لاسبابه وتمحلا لعلله ، وهذه آخر اشارة نلمح اليهم بها

***

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين واشبههما بالحق اننا اخترنا أوهن قصائد شوقى واكثرها مغامز . وليس هذا صحيحا فانما انما راعينا الحداثة فيما اخترناه من قصائده وهى لا تقل فى اعتقادنا واعتقاده عن أجود شعره صياغة ومعنى ولكن الحقيقة ـ كما قلنا فى الجزء الاول ـ هى ان قراء اليوم غيرهم بالامس فليس يرضيهم ماكان فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر اصحاب هذا القول باننا انما كنا نصوب الانتقاد الي شاعرية شوقى وذوقه وروح قصائده ومنهج ادبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأنى ، واذا كان الطعن فى الشاعرية والعاهة فى الذوق والروح والاعوجاج فى المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والاسلوب لا يقدم ولا يؤخر فى الحكم على الشاعر . ولعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث فى شعر شوقي سواسية

أما ثاني الاعتقادين فهو اننا اغاظنا العصا لشوقي وشددنا عليه النكير . ولهؤلاء نقول اننا لا نهدم خطأ مؤسساً على البرهان فننقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما أحوج البرهان فى هذه الى الشدة وما اقل ما يغنى فيه اللين والهوادة

ومما استصعبوه اننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين . فياعجباً !! كأننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الامة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة فى اشنع ضروبها !! وأى حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقاً ؟؟ فنحن لا نرى للرجل في انفسنا قدرا يتجافى به عن اخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما اعلناه فى توطئة الجزء الاول ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الاجزاء التالية . فمن كان يفقة ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا ولضمير الامة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ماشاء. فانه لا يعرف كيف يغضب

وكأننا بزمرة شوقي يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التى يغضب لها الناس فى آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا نؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الاول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الاديب الجدير بشرف الادب ، وما ترخص له المحاكم فى التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه

كان ولا يزال فى حاضر الزمان ، لا فى سالف العصر والاوان . وفى الجزر البريطانية لا فى جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص ـ لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكى فى النفوس الضرم . شاءت شركة جناتوزان أن تقتبس منها ابياتا لترويج غذاء مشهور من اغذيتها التى تجهزها لمداواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فاذا كان من امر ذلك الرجل المدعو

رديارد كبلنج الذى قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا أنه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله ـ ويدعى المستر هيوز ـ وقف فطلب الى القضاء منع الشركة من امتهان الابيات بهـذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لمن أصعب الاشياء أن يتخيل الانسان أمرا أشـد ايذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة فى صياح الباعة على سلعهم . انها لاهانة لاتقل عن السباب المقذع لـكل من لامست نفسه أقل مسحة من الـكرامة الادبية »

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه عذر الشاعر وقال : « لا عجب أن ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه علي هذه الصورة ـ وعندي ان هذا الاقتباس لا يدخل فى حق الاستشهاد الذى يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١ » وحكم بتغريم الشركة أربعين شلنا تعويضاً للاهانة التى الحقتها بالشاعر (١)

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التى يسمونها الـكرامة الادبية ، ولـكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير فى غير قصور الف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفكهة

لمثل ذلك الابتذال يغضب اديب الغربيين ويقول محاميهم أنه أشد ما يتخيل ايذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعاً وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لان أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الادبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا أنه « أسرى مروءة الدني وأدنى مروءة السرى » كما كان يقال فى عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولغزا مغلقا ، لان هذا الذى انف كبلنج أن يصنع بشعره على غير علم منه قد صنعه

---

(١) جريدة الديلى كرنيكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠

شوقي بشعره مختارا وتعمد ان يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ ألم ينظم ابيـاتا يروج بها « ريشة صادق » ونشرها فى الصحف ؟ بلى فقد قال ادامه الله للدكاكين والمآتم والافراح والسهرات :

لله ريشـة صادق من ريشة تزرى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة فى المشارق كلها حسنا وفكتها من التقييد
تهدى لحسن الخط كل مقصر وتمد فى الاحسان كل مجيد
اغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها من ريشة الالماس عند الغيد
والذفوق الطرس ان خطرت به من ريشة الليثى فوق العود
وتكاد تحيي مؤنسا بصريرها وتقول أيام ابن مقلة عودى
لو لم يكن فى الامر إلا أنها مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفى هذه الابيات أوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة ـ شعر لا يتأ به صاحبه أن ينزل به منزلة الاعلانات التجاريه ، وعبقرية دراجة أبانت أن اخيلته وابتكاراته هى ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشة كتابة بأنها « أغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى فى قوارع الطرقات « ياجواهر ياعنب » والذى يدلل على ريشة عربية بانها « حسنت الكتابة فى المشارق كلها » إنما يرشف من البحر الذي تغرف منه « الفرص الحقيقية وأحسن بضاعة فى العالم كله » و « ولو لم يكن فى الامر إلا أنها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى أن الباعة لا يغلطون غلطة شوقي فيقولون وهم يعرضون الريشة ويمدحونها بالجدة والسلاسة أن لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!

وبعـد فأن المرء ليزدرى العقل الانسانى نفسه ان قيل أن هؤلاء الصعاليـك الفـكريين الذين تقوم عليهم الامارة الشوقية من ذوى مزاياه وحملة أمانته فى الارض. فالادباء فى الامم هم عنوان حياتها الروحية والفكرية ومعيار لما تحسه من مفاخر الحياة وقوى الطبيعة ومعاني الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور السماوى

الذى يفيضه الله من الآيات والفنون جمالا ونبلا . ويوحيه كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة فى الامم صفحتها الواضحة وطبقتها الممتازة الراجحة ، فقل لى رعاك الله أي هذه الطغمة أميراً كان أو مأموراً تفخر الامة الحيـة بأنه صورة ما في نفوسها من زينة وجمال ومظهر ما فى رؤسها من فكر وخيال وترجمان ما يجول بوجدانها وتعمر به صدورها من قـط فى الوجود وتراث مقسم بين أبنـاء آدم . وان المرء ليزهي بآدميته حين يلقي بنفسه فى غمار الآداب الغربية وتجيش اعماق ضميره بتدافع تياراتها وتعارض مهابها ومتجهاتها وتجاوب اصدائها واصواتها ـ أبواب للـكتابة منوعة ومهايع متسعة وفنون مبتدعة ، ونحل ومذاهب ، ومدارس ومشارب . والحيرة بين هـذه الافكار المشرقة معروضة للنظر فى كل شية من شيتها محسوسة فى كل خطرة من خطراتها متكررة متضاعفة ، شاكة موقنة . جادة ساخرة . ناقة راضية . شهوانية متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة بينابيعها مروية ، والنفس تحس من احدي نواحى ذلك العالم الرحيب مالا تحسه من سواها فكانها نفوس متفرقة لا نفس واحدة جاثمة

كذلك عالمهم . ثم تلتفت الي الادب الذى يدعيه اولئـك الاميون العارفون بالـكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة المتطفلون على موائد الخاصة فترى عجباً . ترى هذا عاكفاً على رقمتية ولعلعه وذاك مدبراً الى ربربه وسربه ، ومادحاً وهاجياً ومحسوباً على آل فلان ومتمسحاً بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول خاوية واخيلة فى التراب ثاوية . أو كأنما الانتقال الى القرار هاوية . فصدق إحدى اثنتين : اما أن أدبا تسمعه من هولاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو الى أسمى معارج الانسانية . أو أنهم ليسوا من ذاك وإنما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباغة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور

وان من الجناية على مصر والشين لها ان يسمي هؤلاء النفر بعـد اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لـكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من أغراضه أو يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات ارزاقهم بعرض ثعابينهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا « للـكلتور المصري »

يساق دعائمه لتمثيل الروايات وانشاد الاشعار بأيسر مما يساق المولوية لتشييع الجنائز وتلاوة الاذكار !!

ولقد كان مما قيل فى المدنية الحديثة أن أقلام ادبائها احدي الحواجز التى تصونها أن ترتد الى العصور المظلمة وانها عصمة لها من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وانها سلاح من اسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب حسابه كل طاغية ـ فأى عصمة لمصر فى اقلام هؤلاء المخططين والنظامين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟ ؟ الا أن العصا فى يد الاكار لانفع لمدينة مصر واصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون انفسهم من الكرامة فلا احجاف بهم ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصب عليهم . ولقد وجب بل آن أن يفهم الادب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم

***

وكأنما شاء القدر أن يبدد حبائل شوقى وطلاسمه كلها فى بضعة اسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر عاية القوم يثنون عليه فيغترون بتشيعهم له ويروعهم اعجابهم به ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا حتى جاءت لجنة الاغانى فأماطت الستر عما وراء ذلك وهتكت للناس حقيقة أعجاب هؤلاء العلية اذا أعجبوا وقيمة استحسانهم إذا استحسنوا وانها ان هى الا محاباة ما سخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة

شمرت الاجنة عن ساعديها واغمضت امام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندى اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب فاخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به للملأ كى يشاركها فى الابتهاج به فيالها مهارة !! ولكنها لسوء حظ شوقي كانت تنقصها خفة اليد ! !

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث فى الجلسة مما أظهر اطلاع اكثر الاعضاء على النشيد قبل التئامها اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول

فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين ـ وهم اعضاؤها الاخصائيون ـ اختارت نشيدشوقى وأعلنت اسباب اختيارها له فى منشورها وهى أنها « انتهت فى مناقشتها الى أنه اكفاها واوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسق لنشيد قومى » وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطاً ولا كان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة

ويذكر القراء أن الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك فى الصحف ينقد النشيد ويقرر انه لا يصلح للتلحين بانغام الاناشيد القومية ثم انهم يذكرون أن فريقاً من اعضاء نادى الموسيقى من الذين كانوا فى لجنة الاغانى اذاعوا بعقب ذلك فى الصحف أن الاستاذ انما يتكلم برأيه ومعنى هذا أنهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة مجدين فى أبعاد كل مظنة في صلاحية « النشيد الوطنى المختار » للتلحين

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبنى على المناقشة وهذا الاصرار الصادر عن روية ؟

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هى أمامهم واقبلوا يسألونها وهى محتدمة تصفيقاً : ما هذا الذى تصفقين له ؟ ؟ نعم لم يعد يكفى فى هذه الامور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون وراءه . وكثر اللغط بتحيزها واجترأ الموسيقون على الافضاء بآرائهم فى تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه أول المنهزمين فقد أخذ يزعم أنه انما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة فى مسرحهم ... كأنما النشيد مشي بقدمين الي ديوان لجنة الاغانى ! ! وخشيت اللجنة أن يكون حكم الامة عليه حكما قاضياً على معرفتها وانصافها واخلاصها فبادر أعضاؤها الاخصائيون يبلغون الصحف أن النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومى !! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك فى تلحينه . اذن فماذا اشترطتم ؟ ؟ اتراكم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة » تغنيها على المعازف والآلات؟ ؟ واين ذهبت تلك المزايا التى اتسقت « للنشيد الوطنى المختار » ؟ ؟

كذلك تهافت حكم لجنة الاغانى بيدها وانكشف طلسم كان من أبهر طلاسم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعنى بطلسم الاسماء الخلابة ووهم الالقاب الجذابة. وعندنا أن لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرحى منها صلاح الاغانى ولا سواها

ولـكنها اذا كانت تخرج من العدم لتؤوب اليه بعد أن تـكون قد أبطلت وهم العامة في أمثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من أجلها نعمة هذا الوجود القصير

على انها مهمة ننفسها على هـذه اللجنة فقد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضـلا كبيراً فـلو لم تقيضها الحوادث لاظهار قيمة التحبيذ والاطراء من ذوى الالقاب والاسماء لتكفل بذلك محفل آخر أقيم فى شهر ديسـمبر الماضى وهـذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها :

قال المقطم فى عدد يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذلك الشهر : قد كان يوم الجمعة الماضي ميعاد القاء القصيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعر الفاضل السـيد محمد عبد الله القصري في الحفـلة التى أقيمت تـكريما له برآسـة حضرة صاحب السـمو الامير الجليل عمر طوسن بدار الجمعية الاسـلامية بقصر النزهة بشبرا فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى أقبل المدعوون من علماء وكبراء وأدباء وأعيان فازدحم بهم المـكان ثم أقبل نائب الامير محمد بك جلبى باشمعاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك فرق الـكشافة للـكشاف الاعظم ثم ابتدأت الحفلة بالذكر الحـكيم فنشيد شوقي بك فنشـيد الـكشافة فقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الامير واعتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة وألقاها بين الاعجاب والتصفيق الشـديد . وبعد انتهائه قدم له نائب الامير ساعة ذهبية أثرية ثمينة وتبرع حضرة العربي الـكريم عبد المجيد بك محمد السعدي بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف حضرة الشاعر العربي عمر بك السعدى والقى قصيدة عامرة اثنى فيها على سمو الامير لتعضيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من أصبعه خاتما من الماس ووضعه في أصبع الاستاذ القصرى وقدم له سيادة السيد محمد أبو بكر مرغني شيخ السادة المرغنية بمصر خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عليش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية

أنشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم وأقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر)

انتهى ما نقلناه من المقطم . فليتأمله القارئ وليتصور اسم شوقي مجرداً من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . . .

وثم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها فى انصافها وفي الاخلاص للفن الذي تخدمه وتنشيط المواهب الفتية التي تنهض اليه لولا انها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففى فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديميه كونكور) يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثني عشر ألف فرنك للسابق من الادباء في باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة المنصرمة فتي اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية ألفها . افيدرى القارئ من هذا ارنست بيروشون ؟ ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسى يسأل عن شأنه فاذا المسؤل والسائل فى العلم به سواء . راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فألفوها خلوا من كل اشارة اليه أو الى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الايام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظرى عنوان فى احدى صحفه هذه ترجمته « خير روايات العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الا كاديمية الفرنسية » (١) فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس « وكان بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم أمس جهلا تاما وان كان قد طبع في الاقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص . . . ولم

---

(١) جريدة الديلى كرونيكل عدد ١٣ ديسمبر ١٩٢٠

يكن أحد من أعضاء المجمع يعرفه الا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقا فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز أستاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر »

فياقوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلاعجب . تلك لجانهم تعدل فى أحكامها هذا العدل وتحيي كل ملكة صالحة للحياة وهم لايأتمون بها مغمضين ولايسلمون لها خاضعين ، فكيف لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لاتحسن غير المجاملة ولاتحسن ان تجامل الابأن ترضي فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم والاقفار ؟ ان فى ذلك لموعظة

***

وخلاصة القول اننا عرفنا رأى القراء في عمانا فقسمناهم الى فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقي لغير سبب معقول يفيء الى شعره فقد أسخطناهم ولا نسأل الله أن يخفف سخطهم . وأما الذين يرجعون الى الاسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة وكان أقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتي يرى . واننا لنعلم انه يرى مايقنعه

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الاولين يمثله كتاب ورد الينا غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته : « خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وأمثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم »

ويمثل رأى الاخرين بيت لقينابه أديب مشهور فقال : ايه يافلان ، اليك بيتا يسير مسير الامثال :

شوقي تولاه عباس فاظهره واليوم يحمله في الناس عباس

وجوابنا له : بل انه عصر يحمل عصرا ولاغية وهم تخفتها صيحة حق . وانا لعلى الحق صامدون

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سمسرة شوقي : ما ترى في رثائه لمصطفى كامل ؟ ؛ أتنتقده ؟ ؟ قلت وماذا عساى أن أنتقد ان لم أنتقد الهراء والزيف والشتات ؟؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتنى هداك الله فما كنت أظنها آية لاحد من العالمين وما حسبتها الازلة أسقطته فيها (مغالبة الشجون لخاطره) أو داهية خانه فيها امكانه الذى ما فتئ يخونه كما قال منها :

ماذا دهانى يوم بنت فعقني فيك القريض وخانني امكانى

وما دهاه الا العجز والفهاهة والحرج . دهته أولا فأجبل وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها في أربعين يوما ثم زاد كثيرا من أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانيا فجرى فيها على عادته من التلفيق والعقم والزغل المموه . فأما وقد علمت أنها الآية التى بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده والمعجزة التى يستنصر بها دعاته فبآيته فاندحض رسالته وفي معقله الحصين فلنكشف وهنه ونفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل وأي معقل . ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل أخوي من ذلك وأضعف ، وأضأل في الضؤولة واسخف ، أراحه الله من شعره بما أراح من أقلام نقاده فانه علم الله لم يزعج لهم بديهة وان كان يزعج بديهته فى صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطرا وان كان خاطره منه في وصب وشقاء . ولقد فات أصحابنا سمسرة شوقى ان خلافنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق فتتقارب كلما أجاد شاعرهم في رأيهم أو خيب آمالهم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على أدائه وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة أخسها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان أبعد عن حالة الصحو والصواب ، وكالاعجمى كلما أمعن فى فصاحته وبيانه استغلق على مسامع الاعراب . وهذا هو الواقع في ما أخذناه ونأخذه على شعر

شوقي وهو بخاصة شأننا فى الحكم على قصيدته هذه التي رأينا بعض المفتونين يجلها عن الانتقاد ويعجب من أن تعاب ، وهى لو يفقه من القصائد التي يصاب منها المذهب العتيق فى مقاتله والشواهد التي يبحث عنها لابراز مآخذه. وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الاول فيها

فالعيوب المعنوية التى يكثر وقوع شوقي واضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ولكن أشهرها وأقربها الى الظهور وأجمعها لاغلاطهم عيوب أربعة وهى بالايجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر — وهذه العيوب هى التى صيرتهم أبعد عن الشعر الحقيقى الرفيع المترجم عن النفس الانسانية في أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزبجى عن المدنية ومن صور الإبسطة والسجاجيد كما يقول ماكولى عن نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الآنفة أثر ظاهر فى هذه القصيدة قدلاتجده في غيرها من القصائد الامزويا أودقيقاً عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر القصيدة بهذا المسبار أن من نقائص الشعر مالا يمنع أن يلمح له رواء معجب يستهوي البسطاء بل ربما زادته جمالا فى الظاهر كالحلى المزيفة فانها فى الغالب أجمل من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة غالية

(١) التفكك

فاما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبدداً من أبيات متفرقة لاتؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت القصائد ذات الاوزان والقوافي المتشابهة أكثر من أن تحصى فاذا اعتبرنا التشابه في الاعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو مالا يجوز . ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاماً يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن

الموسيقى بانغامه بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره في موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أوالقلب عن المعدة . أوهى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولاقوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين فانك تراهم يلاءمون بين ألوان الخرز واقداره في تنسيق عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا الاحيث تنزل بهم عماية الوحشية الى حضيضها الادنى وليس دون ذلك غاية في الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها فاعلم انه أنفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد أوشعور كامل الحياة بل هو كامشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كاجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف واجهزة ، وكلما استفل الشئ في مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها في اللون والتركيب صالحة لان تحل فى أى مكان من البنية التى هى فيها . فاذا ارتقيت الى النبات ألفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتي يبلغ التباين أتمه فى أشرف المخلوقات وأحسنها تركيباً وتقويماً . وهى سنة تتمشى في أجناس الناس كما تتمشى فى أنواع المخلوقات ومصداق ذلك مانشاهده من تقارب الاقوام المتأخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعاً على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولمسها البحترى في هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة حص اللحى متشابهو الالوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت أقدارا وملامح وبدوات وأطواراً حتي ليوشك أن يكون من المستحيل اتفاق اثنين في هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الذهن ونزعته . ونقترب مما نحن بصدده

فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال في الادب ألفيت تشابها فى الاسلوب والموضوع والمشرب وتماثلا في روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الاسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات ، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لاعضوا متصلا بسائر أعضائها فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الابيات في القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكرة وجفاف السليقة فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صامد متصل الاشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة ، أو كانها هى ميدان قتال فيه الف عين والف ذراع والف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه فى قمته ، لا كالبناء المقسم الذى ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزاياه

وهذه كومة الرمل التى يسميها شوقى قصيدة فى رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء أن يضعها على أى وضع فهل يراها تعود الا كومة رمل كما كانت ؟؟ وهل فيها من البناء الا احقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها . وتقريرا لذلك نأتي هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الاول ليقرأهما القارئ المرتاب ويلمس الفرق بين مايصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على فضاء نطيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا انها كما نرجو لا

تضيع عبثاً — قال شوقي أصلحه الله :

١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والدانى
٢ ياخادم الاسلام أجر مجاهد فى الله من خلد ومن رضوان
٣ لمانعيت الى الحجاز مشى الاسى فى الزائرين وروع الحرمان
٤ السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان
٥ لم تألها عند الشدائد خدمة فى الله والمختار والسلطان
٦ ياليت مكة والمدينة فازتا فى المحفلين بصوتك الرنان
٧ ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا ماغاب عن قس وعن سحبان
٨ جار التراب وأنت أكرم راحل ماذا لقيت أمن الوجود الفانى
٩ ابكي صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليه كرامة للجانى
١٠ يتساءلون ابالسلال قضيت أم بالقلب أم هل مت بالسرطان
١١ الله يشهد ان موتك بالحجا والجد والاقدام والعرفان
١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم فى هذه الدنيا فانت البانى
١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى هل فيه آمال لنا وامانى
١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى ولرب حى ميت الوجدان
١٥ الناس جار في الحياة لغاية ومضلل يجرى بغير عنان
١٦ والخالد فى الدنيا وليس برهين عاليا المناصب لم تتح لجبان
١٧ فلو ان رسل الله قد جبنوا لما ماتوا على دين ولا ايمان
١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة جعلت لها الاخلاق كالعنوان
١٩ واحب من طول الحياة بذلة قصريريك تقاصر الاقران
٢٠ دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان
٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان
٢٢ للمرء في الدنيا وجم شؤنها ماشاء من ربح ومن خسران
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع وهي المضيق لمؤثر السلوان

٢٤ الناس غاد في الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهانى
٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة في طيها شجن من الاشجان
٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان
٢٧ ياطاهر الغدوات والروحات والخطرات والاسرار والاعلان
٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحا غاز بغير مهند وسنان
٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العلوم دعائم العمران
٣٠ لفوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ماأحمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكى بدمع قان
٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى فكأنما في نعشك القمران
٣٣ وكانه نعش الحسين بكربلا يختال بين بكي وبين حنان
٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ماضم من عرف ومن احسان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل وبكتك بالدمع الهتون غوان
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم اذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون باى قاب ترتقى بعد المنابر أم باى لسان
٣٩ فلو ان أوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الاوطان
٤٠ أو كان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
٤١ أو صيغ من غرر الفضائل والعلى كفن لبست أحاسن الا كفان
٤٢ أو كان للذكر الكريم بقية لم تأت بعد رثيت في القرآن
٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محدق والداء ملئ معالم الجثمان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضلل قنط وساعات الرحيل دوان
٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها دمع تعالج كتمه وتعاني
٤٦ تملى وتكتب والمشاغل جمة ويداك في القرطاس ترتجفان
٤٧ فهششت لى حتى كأنك عائدى وأنا الذى هد السقام كياني

٤٨ ورأيت كيف تموت آساد الشرى وعرفت كيف مصارع الشجعان
٤٩ ووجدت في ذاك الخيال عزائما مالممنون بدكهن يدان
٥٠ وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه من ادمعى وسرائرى وجنانى
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطرى لنظمت فيك يتيمة الازمان
٥٢ وأنا الذى أرثى الشموس اذا هوت فتعود سيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف في الورى بقصائدى وتجل فوق النيرات مكانى
٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فمقنى فيك القريض وخاننى امكانى
٥٥ هون عليك فلا شمات بميت ان المنيـــة غاية الانسان
٥٦ من للحسود بميتة بلغتها عزت على كسرى انو شروان
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها فهل استرحت ام استراح الشانى

—

٥٨ ياصب مصر وياشهيد غرامها هـذا ثرى مصر فنم بأمان
٥٩ اخلع على مصر شبابك عاليا والبس شباب الحور والولدان
٦٠ فلعل مصراً من شبابك ترتدى مجـدا تتيه به على البلدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان
٦٢ علمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تـكون فى الشبان
٦٣ مصر الا سيفة ريفها وصعيدها قبر ابر عـلى عظامك حان
٦٤ أقسمت انك في التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملـكان

***

كذلك انتظمت لشوقي مرثاة في مصطفى كامل وسماها قصيدة لانها لم تأب أن تستقر في قرطاس واحد ، ولقد كان أحرى بها ان تسمى أربعة وستين بيتا منظومة في كل شئ أو فى لا شىء . فاعبرها أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت

لها بل لعلها ربحت وعادت أحسن نسقا وأقرب نظما ـ قال شوقي أيضا :

١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والداني
١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى ولرب حى ميت الوجدان
٢١ فارفع لنفسك بعده وتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان
٦٤ أقسمت انك في التراب طهارة وملك يهاب سؤاله الملكان
٢٧ ياطاهر الغدوات والروحات والخطرات والاسرار والاعلان
٩ ابكي صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليك كرامة للجاني
١٩ وأحب من طول الحياة بذلة قصر يريك تقاصر الاقران
٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل وبكتك بالدمع الهتون غوان
٥٥ هون عليك فلا شمات بميت ان المنية غاية الانسان
٢٠ دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان
١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمال لنا وامانى
٦٠ فلعل مصرا من شبابك تردى مجدا تتيه به على البلدان
٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محدق والداء ملئ معالم الجثمان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضلل قنط وساعات الرحيل دوان
٤٩ ووجدت في ذاك الخيال عزائما ما للمنون بدكهن يدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان
٤٦ تملى وتكتب والمشاغل جمة ويداك في القرطاس ترتجفان
٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها دمع تعالج كتمه وتعاني
٤٧ فهششت لى حتى كانك عائدى وأنا الذى هد السقام كياني
٥٠ وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه من أدمعى وسرائرى وجناني
٤٨ ورأيت كيف يموت آساد الشرى وعرفت كيف مصارع الشجعان
٥٤ ماذا دهاني يوم بنت فعقنى فيك القريض وخانني امكاني
٥٢ وانا الذى ارثي الشموس اذا هوت فتعود سيرتها من الدوران

٥٣ قدكنت تهتف في الورى بقصائدى وتجل فوق النيرات مكانى
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطرى لنظمت فيك يتيمة الازمان

***

٥٨ ياصب مصر وياشهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان
٦٣ مصر الا سيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حان
٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
٤١ لو صيغ من غرر الفضائل والعلى كفن لبست أحاسن الاكفان
٤٠ أو كان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
٣٩ ولو ان أوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الاوطان
٤٢ أو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد رثيت في القرآن
٢ ياخادم الاسلام أجر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان
٦ ياليت مكة والمدينة فازتا في المحفلين بصوتك الرنان
٧ ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا ما غاب عن قس وعن سحبان
٣ لما نعيت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين وروع الحرمان
٤ السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

***

٨ جار التراب وأنت أكرم راحل ماذا لقيت من الوجود الفاني
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها فهل استرحت أم استراح الشانى
١٠ يتساءلون ابالسلال قضيت أم بانقلاب أم هل مت بالسرطان
١١ الله يشهد ان موتك بالحجى والجد والاقدام والعرفان
١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة جعلت لها الاخلاق كالعنوان
١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فأنت البانى
٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحا غاز بغير مهند وسنان
٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العلوم دعائم العمران

٦٢ علمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الشبان
١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين عليا المناصب لم تتح لجبان
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان
١٧ ولو ان رسل الله قدجبنوا لما ماتوا على دين ولا ايمان

***

٣٠ لفوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ما احمرمن خجل ولا من ريبة لكنما يبكى بدمع قان
٣٥ ومشى جلال الموت وهوحقيقة وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى فكانما في نعشك القمران
٣٣ وكانه نعش الحسين بكر بلا يختال بين بكي وبين حنان
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم اذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر أم بأى لسان
٥٧ اخلع على مصر شبابك عاليا والبس شباب الحور والولدان
٥ لم تالها عند الشدائد خدمة في الله والمختار والسلطان
١٥ الناس جار فى الحياة لغاية ومضلل يجرى بغير عنان
٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة في طيها شجن من الاشجان
٢٢ للمرء فى الدنيا وجم شؤنها ما شاء من ربح ومن خسران
٢٤ والناس غاد فى الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهاني
٢٦ فاصبر على نعمى الحياةوبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

***

فانظر أيها القارئ الى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت ؟؟ على اننا قد تناولنا الابيات عفوا كما بدرت لنا ولم نتحر الاقصاء فى الترتيب . ولو اننا غيرنا بعض الضمائر التى تعلق الاسم على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التي تصل الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكد يجتمع بيت

من القصيدة على بيت ، وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارئ نفسه: هل قرأ فى الشعر أشد تفككا منها ؟؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هى نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد أو تقطرت من عقل ناضب يبض بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس وبخع النفس فتأتى كالرشاش لا يتولد منه الا الوحل واليبس ؟؟

وقبل أن نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية ننبه من يستبهم عليه الامر الى اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الاقيسة المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد أن يشيع الخاطر فى القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما أسلفنا بالاشلاء المعلقة أشبه منها بالاعضاء المنسقة كما رأينا فى هذه القصيدة

« ٣ » الاحالة

أما الاحالة فهى فساد المعنى وهى ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهدها كثيرة فى هذه القصيدة خاصة ، فمن ذلك قوله

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لانها لا تقام على أرجل وانما تطرح على الارض كما يعلم شوقي . اللهم الا اذا ظن انها أعمدة تلغراف . على انها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان في المعنى طائل اذ ماغناء قول القائل في رثاء العظماء ان الجدران أو العمد مثلا نكست رؤسها لاجله ؟؟ ومنه قوله

ان كان للاخلاق ركن قائم (فى هذه الدنيا) فانت البانى

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والاداء أجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئا ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام فى كل لغة ولأى

قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين أو وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح أن يقال فى انسان معلوم أو صح أن يقال فى كل انسان : فى السياسى والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهذيان بعينه ، فما ذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟؟ أيفهم انه وحده هو البانى لكل ركن للاخلاق فى هذه الدنيا ؟؟ اذن فماذا يقال عن النبى ان قيل هذا عن الزعيم السياسى ؟؟ وهل لا يصح حينئذ أن يقال هذا القول فى قائد الحرب وفى جوابة الآفاق وفى خطيب المحافل وفى التاجر السرى والوزير المحنك والمربى المرشد والمخترع الحاذق بل فى كل انسان بل فى الناس جميعا بل فى مخلوقات الله وكائناته طرا من حى ونابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمدلول سواء أرثيت به حجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بمذهبه ألوف الملايين منذ ألوف السنين . ولا جرم فان كونفوشيوس ان كان قد سن للناس شريعة فما كل الاخلاق فى الشرائع ، وهب الشرائع مصدر الاخلاق كافة فليس كونفوشيوس وحده صاحب شريعة فى قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الامة فلو قيل فيه انه موقظ كل نفس بمصر فى عصره لما كان هذا حقا اذكم فى مصر من رجل أيقظه ما أيقظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من أناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا ؟؟ فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر فى كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الامم فى جميع العصور فالامر شر من اللغو وأقبح من السفه — هذا وما تجاوزنا دائرة من النهضات السياسية فماظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الاصلاح الاخلاقى فزعم ان ليس للاخلاق ركن قام فى هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد فى أواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟؟ اذن يكون بكم العجماوات خيرا

من شعر الآدميين كما قلنا فى فصل مضى

ومن الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى هل فيه آمال لنا وأمانى

لو سأل : هل فى قلبك المدفون في الثرى آمال لنا وأمانى لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها ونفاهة مغزاها . أما الذى يسأل أن يفتش فلا يصح أن يسأل هل فى قلبك آمال وأمانى الا فى معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعي : ياهذا الذى يمشى هل أنت حى ؟؟ ولقد قال حكيم

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى

فكل من يفرض فيه انه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله كبار النفوس وبعيدى الهمم ومنها :

فلو ان رسل الله قد جبنوا لما مانوا على دين ولا ايمان

الصواب فى اظهار فضل الشجاعة ان يقال انها لازمة فى أصغر المطالب وأقرب الغايات كما يقال في اظهار فضل المال ان الانسان لا يقدر على أن يشترى ابرة بغيره ولا يقال فى الدلالة على شدة لزومه وبيان الحاجة اليه انه لا يقدر على شراء مدينة بدونه . ولو قال شاعرنا ان أحقر الناس خليق أن لا يكسب قوته القفار بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، أما الاستشهاد على قدرها واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس قاطبة أن يقنعوا بما دون الرسالة فلا يحتاجوا الى الشجاعة . اما ان قيل ان الشاعر يعنى ان الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم روح الله لا بد أن يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو أفرغ منه وهل اذا سمعت أيها القارئ رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومتانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا أكنت تظنه يخبرك بشئ يستحق أن ينظم فى بيت شعر ؟؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقي ان صح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :

فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

والذى يقوله الناس ـ وشوقي منهم اذا شاء ـ ان فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تأزم بالطامح المتدفع ، لبعد آماد همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالى ينفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب .!: فأما القول بأن المطامع تفسح الدنيا والسلوان يحرجها فرأى لايخطر الاعلى فكر كفكر شوقى المقلوب

ومن هذه الاحالات هذه الفهاهة:

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف أما الصبر على نعماها فماذا هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا ان المصائب والخيرات سيان فلا غرابة في ان يصبر الانسان على النعمة وأن تبطره المحنة . هكذا يقول شوقى وما أصدقه فاننا لانرى منحة هى أشبه بالمحنة من هذا الشعر الذى أنعم الله به عليه . ولله في خلقه شؤن

ويقول :

يزجون نعشك في السناء وفي السنى فكأنما في نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى في ذلك النعش ؟! ولايقال ان صاحبنا أراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لان السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو انه قال « كانما في نعشك القمر » أو « كانما في نعشك الشمس» لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمرى كيف يكون النعش في السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى في النعش؟؟ وما هذا الرثاء الذى لايتم الا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الافلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم في كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل مايعرفه بأنه كالسكر . فالمدرسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . وكذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرئ وامرئ ولا بين حالة وحالة فى

جميع هذه الاوصاف

ويقول عافاه الله

وأناالذى أرثى الشموس اذاهوت فتعود سيرتها من الدوران

أى والله ظاهر . لكن الشموس والاقمار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر

ويقول :

ياصب مصرو ياشهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان

و نقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء أن نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات فى وطنه : أحببت بلدك فنم فى ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد انه سيدفن فى غيره

ومن مبالغاته التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلوان بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهردان

ولعله أراد المقابلة بين الشباب فى البيت المتقدم والهرمين فى هذا البيت ونحن ننعى على هذه المبالغة دائماً انها لا تدل على شئ فهب انه قال

فلو ان بالقطبين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان

او قال

فلو ان بالشطين من عزماته بعض المضاء تحرك الشطان

الى آخر المثنيات التي تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت فى رثاء مصطفى أو فى رثاء باستور أو فى رثاء ابن زريق أو مشهور كائناً من كان فماذا يختلف من المعنى ؟؟ ومتى كانت الاوصاف لا تتغير بتغير موصوفاتها فماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟؟

ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حان

مصر أيها القارئ ـ ولا تخطئ فتحسبها القاهرة المعزية فانها مصر بريفها وصعيدها ـ مصر كلها ما هى الا قبر واحد . فلله در شاعرها يرثى رجلا أحيا نهضة فى بلاده فيجعلها قبراً ، ولأى ضرورة وليدل على ماذا ؟؟ لاشئ

وقد اجتزأنا بهذه الأبيات ، لا لأنها كل مافى القصيدة من شواهد الاحالة واعوجاج الطبع بل لأنها ذات طعم وان كان رديئاً ممجوجاً وما سواها تافه لاطعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة بجملتها بنت الاحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانما أكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان

(٣) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعانى وأيسره على المقلد الاقتباس المقيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان

مقتضب من بيت المتنبى :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما قاته وفضول العيش اشغال

وهذا البيت

والخلق حولك خاشعون كعهدهم اذ ينصتون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبى الحسن الانبارى فوق تشويهه وذاك حين يقول فى رثاء الوزير أبى طاهر الذى صلبه عضد الدولة

كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيام للصلاة

ونقول شوهه لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم ساثرون به وانما يفعل ذلك اللاعبون فى المعارض المتنقلة . وقوله

أو كان يحمل في الجوانح ميت حملوك فى الأسماع والأجفان

مأخوذ من بيت ابن النبيه فى قصيدته التى لم تبق صحيفة لم تستشهد بمطلعها

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت فى الترب ولو أنصفوا ما كنت الا في صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتذاله وسخفه ان تنظمه « عوالم » الافراح فى اغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا أرفع من القائلات « أحطك فى عينى ياسيدى واتكحل عليك » وانه ليقول كما قال

ولو ان لى علم ما فى غد خبأتك فى مقلتى من حذر

وقوله :

أو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد رثيت فى القرآن

منظور فيه الى بيت المعرى

ولو تقدم في عصر مضي نزلت في وصفه معجزات الآى والسور

وهذا البيت :

او صيغ من غرر الفضائل والعلا كفن لبست احاسن الاكفان

من قول مسلم بن الوليد

وليس نسيم المسك ريا حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف

فما أضاف شوقى الى هذه المعانى سوى أنه جعل الاكفان تصاغ وانه تحذلق فقال

فلو ان اوطاناً تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الأوطان

يريد جسداً . كأنه يحسب ان الاوطان ان لم تصور جسداً لم يدفن الفقيد النابه فيها!!

وربما سرق شوقى ما لا يستحق ان يسرق فهذه شطرته

لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى

أليست هى شطرة الشريف في احدى همزياته

لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هى من قول الشريف ايضاً « ان المنية غاية الابعاد » وكأن القافية صدته عن انتهاب الشطرة كلها فعاد اليها فى رثاء فريد اذ قال

من دنى أو نأى فان المنايا غاية القرب أو قصارى البعاد

فأتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته فى فصل على حدة

(٤) الولع بالاعراض دون الجواهر

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالاعراض دون الجواهر وهو العيب الرابع الذي اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة الدالة على انماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها في الصدور عن طبع أعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن الى الاحالة ولكن التفطن الى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يعسر على الاطفال ادراك رزانة الرجال . انظر أيها القارئ الى هذا البيت

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت القصيد فى رأى عشاق شوقي فعلى اى معنى تراه يشتمل ؟؟ معناه ان السنة او مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقى قد أتى بالحكمة الرائعة ؟؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هدانا الى واجب الضن بالحياة — وهنا يبدو للنظر قصر المسافة التى يذهبون اليها في اعجابهم وان بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب ايام كان يقاس الوقت بالساعات المائية او الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟؟ ابهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الدى ينظم في الحياة الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟؟ ولقد قلنا في نقدنا لرثاء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق

الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها » ونعيد هـذه الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا أن أحدهم لو سمع ناصحاً يعظه فى موقف جد — وأي موقف جد أجد من رثاء النابغين ؟ ؟ — فيناديه يا أخى صن وقتك لان قلبك ينبض كما تنبض الساعة لأغرب في الضحك وخطر له أن صاحبه يخامره الشك فى عقله ولـكنه حين يسمع هذا الـكلام شعراً يطرب له ويكبر قائله ، وما ذاك الا لحسبانه ان الهزل جائز فى الشـعر فـكاهة وحكمة ، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بماحقه أن يضحك منه ويلهو به

وكهذا البيت أخواه هذان :

لفوك فى علم البلاد منـكساً جزع الهلال على فتى الفتيان
ما احمر من خجل ولا من ريبة لـكنما يبكى بدمع قان

وللعلم جوهر وعرض فأما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد الأمة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية . وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لهما قيمة فيما ترفع الأعلام لأجله . فشوقى يولع بهذا العرض اذا هو نظم فى العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثى بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كي يكرن لونها دمعاً ودمعها دماً منزوفاً . وليست هذه هفوة أو فلتة بدرت منه هنا بل هى دأبه كلما وصف علماً ، فقد قال فى وصف الهلال الأحمر :

كأن ما احمر منه حول غرته دم البراءة زكي شيب عثمانا
كان ما ابيض في أثناء حمرته نور الشهيد الذى قدمات ظمآنا
كأنه شفق تسمو العيون له قد قلد الأفق ياقوتاً ومرجانا
كأنه من دم العشاق مختضب يثير حيث بدا وجداً وأشجانا
كأنه من جمال رائع وهدى خدود يوسف لما عف ولهانا
كأنه وردة حمراء زاهيـة فى الخلد قد فتحت فى كف رضوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت والمرجان في لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضاباً لشيبة أو دم عشاق . فيالالطافة الشعرية ! ! وليته سلم بعد ذلك من عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدوداً من حيث خلق الله له خدين ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس اذ هو قد وصف هلالا أبيض فى أثناء حمرة والهلال الاحمر على عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو أنه تنبه اليه — ومع هذا فانى لا قسم أن صاحبنا رص هذه (الكأنات) في أبياته الستة ويخيل اليه أنه لو تقدم به الزمن عهد عمر بن الخطاب لقال أشعركم من يقول كأن وكأن لامن يقول من ومن ...

ومن الغباء العجيب أن يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة على نعش بطل من أبطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى أن يظن بها الناس الظنون وهى بريئة عفة !! اذ ما الذي يخطر على باله الخجل والريبة في هذا المقام وهو يرثي الرجل الذي يخاطبه قائلا

ان كان للأخلاق ركن قائم فى هذه الدنيا فأنت البانى

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت أين تنتهى بصاحبها ! ! وليت شعر شوقى اذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟؟ أكان لا يرى للف النعش بها أي معنى لأنها لا تبكي بدمع أحمر ؟؟

تلك آية شوقى ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة . كومة الرمل كما قلنا فى أول المقال . ولقد أتم فيها امتساخ الطبائع بمخالفة الواقع فجاءت معرضاً مختاراً من الأغلاط ، وسملا مرقعاً من النشوز والاخبباط . وما كان يسعه أن يخرج نفسه خلقاً آخر فيأتى بالمستوي من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم فى أغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه أن يعلم أن السكة الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى في الزائرين وروع الحرمان
السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الأعلام والقضبان

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدنى والحرم المكي وكل قارئ للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال ربى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هى حتى الساعة

وكان فى مقدوره أن يعلم أن الحسين لم يشيع في موكب حاشد كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه

وكأنه نعش الحسين بكر بلا يختال بين بكي وبين حنان

وقد رأيناه يغير على قصائد الشريف افتراه لم يفقه رائيته التى يقول منها في مصرع الحسين

وخر للموت لا كف نقلبه الا بوطئ من الجرد المحاضير
كأن بيض المواضى وهى تنهبه نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه وقد أقام ثلاثاً غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة ودن العامة من يستظهر خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى أثخن بالجراح وانه — لاحيا الله قاتليه — مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ثم ديس بالخيل ورض جسده واحتز رأسه وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم أرسله الى يزيد فى خبر فاجع لاحاجة الى تفصيله . وأنى لمن يموت هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه فى المواكب ؟؟ ولا نقول يختال بين البكاء والحنان فما من أحد ينسب الاختيال الى النعوش الا من كان نعشاً مختالا كهذا الذي لا يميز بين تشييع قتيل الى قبره وزف عروس الى خدرها . فأن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذي يحتفل به الشيعة كل سنة تذكاراً لوفاة الحسين فالخطأ أعظم وأقبح لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب فما رأيناهم يحملون نعشاً وانما يقتادون جواداً مسرجاً ملجماً لأنهم أزكن من شوقي وأدرى بما ينبغى أن يذكر به يوم الحسين اذ كانوا يحتفلون بمصرعه في ميدان حرب لا بمدفنه فى الثرى

كان يسعه أن لا يقول ذلك كما كان يسعه أن يسكت ولكنه ألهم أن

يستقصى عاهات الشعر مايتداركه منها ، اذا شاء ، ومالا يتداركه . وأن يجتهد في ذلك كا نه يكافأ على مجهوده وهو في الحقيقة يكافأ المكافأة التي يستحقها انه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع عنه الاستحسان الا ان يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال عنه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون

***

ولا ندع هذه القصيدة التي ملأها شوقي بما يسميه حكمة وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبى ومضارعة المعري قبل ان نكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروز تلك البديهيات واشباه البديهيات التى يتصنع شوقي بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من هبنقياته ويريح نفسه من عبء لاطاقة له به

فالحكمة في الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهى من أصعب الشعر مراما وأبعده مرتقى لايساس قيادها لغير طائفة من الناس توحى اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجري بها ألسنتهم آيات تنفح ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العائرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هى فصل الخطاب ومفرق الشبهات تستوعب في أحرف معدودات مالا تزيده الاسفار الضافية الاشرحا وامتدادا وتسمعها فتشع في ذهنك ضياءها وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ويأتلف القدم والجدة : قدم الحقيقة كا ثبت ما تجلوها الحياة المتقلبة وجدة النظر الثاقب والنفس الحية التى تطبع كل مرئي بطابعها

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الازل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبى اللذين يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبه والمغالط نفسه واع منتبه يحجب بيديه ماتبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذي قسمه من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انسانا غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعني

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتي لكأن قارئها قد كان يجهلها أوقد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن العبد :

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتي لكالطول (١) المرخى وثنياه باليد

وهذا أجمل مايقال في محبوحة العمر المرتهنة بالأجل

وطورا تصل طرفي الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحتري

متي أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الاخمول نبيه

وطورا تصدع برأي يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز تضرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبي المأثور

الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

أوكقول أبي فراس

ما كل مافوق البسيطة كافيا فاذا قنعت فكل شيء كافي

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور

فليس الشأن كذلك فى كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا في كل نسل ونتاج

ويقرب الشاعر الحكيم المعني العويص والفكر البعيدة فيوضحها وضوح

---

(١) الطول حبل يطول للدابة لترعى فيه والثني الطرف

المألوفات كما صنع الافوه الاودى بهذا البيت الفذ

لا يصلح الناس فوضي لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الاقلام بحثا وتنقيبا فى علوم الاجتماع وكلت القرائح تدبرا وانعاما في شؤن الامم وراقبت الدول على سنن شتي من الانظمة والدساتير فما خرجت كلها بزبدة أوجز ولا أصدق ولا أتم من هذه الحكمة التي اهتدى اليها هذا البدوى الناشيء فى عصور الجهالة وانك لاتزن أمة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة

هذه هى الحكمة الصادقة وهى كما ترى غير قاصرة على ايراد الحقيقة المسلم بها وانما هى الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصيبة والفطنة النافذة واللسان البليغ وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها

والضرب الآخر حكمة مبتذلة أو مغشوشة معتملة . أشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لافضل فيها لقائل على قائل ولانسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطيء النهر الغزير ، وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدي والهجير ، وأحمق ممن يحفر البئر على شاطيء النهر من يروح ويغدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التي حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة فى البكور واحترم الاستاذ تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التأني السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم — ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها

لى دولة الشعر دون العصر وائلة مفاخري حكمى فيها وأمثالى !!

فهل يدري القاريء من صاحب الحكم والامثال الفخور ؟؟ انه هو شوقي ، ثم هل يدري ماحكمه وأمثاله التي استتبت له بها دولة الشعر ؟؟ هذه هى :

عليكم لواء العلم فانفوز تحته وليس اذا الاعلام خانت بخذال

والعلم في فضله أو في مفاخره ركن الممالك صدر الدولة الحالى
يقل للعلم عند العارفين به ماتقدر النفس من حب واجلال

—

بالعلم (تمتلك) الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارئ بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الأول نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم احفظ الدرس . حلى النساء الذهب وحلى الرجال الأدب » وليسأل نفسه ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته وأى ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه وماذا فيها من وحى الشاعرية والهام البصيرة ونهية العبقرية واصالتها ؟؟ أليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟؟

ومن أركان ملكه أعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات فأكثر — فليتلق الوحى أناس حجبوا عن صفاء الشاعرية وليستفيدوا :

المحسنون هم اللبا ب وسائر الناس النفاية

—

ان القضاء اذا رمى دك القواعد من ثبير

——

والمال لا تجنى ثمار رؤسه حتى يصيب من الرؤس مدبرا

——

الجد غاية كل لاه لاعب عند المنية يجزع المفراح

——

سر فى الهواء ولذ بناصية السهى الموت لا يخفى عليه سبيل

——

فلم أر غير حكم الله حكماً ولم أر دون باب الله بابا
وان البر أبقي فى حياة وأبقي بعد صاحبه ثوابا

ومن يعدل بحب الله شيئاً كحب المال ضل هوى وخابا

وما الرزق مجتنب حرفة اذ الحظ لم يهجر المحترف

ما الدين الا تراث الناس قبلكم كل امرئ لأبيه تابع تال

ومن العقول جداول وجلامد ومن النفوس حرائر واماء

أرم النصيحة غير هائب وقعها ليس الشجاع الرأى مثل جبانه

ولعمرى لقد كانوا يقصون علينا ونحن أطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمام وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال واحدة في أثر واحدة فيفهمه متئداً أنه : « ان آل لك حد الراكب متل الماشى أول له بتفشر . وان آل لك حد الغنى متل الفقير أول له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى أجرة « شيلة » حتى رأى شوقي أن يسمعنا نظماً « ان آل لك حد الشجاع متل الجبان أول له بتفشر » فآمنا بخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية ! !

وهل علم أحد أن المسافر اذا آب فقد آب قبل أن يقول شوقي :

وكل مسافر سيؤب يوماً اذا رزق السلامة والايابا

أم علموا الحق حتى أخبرهم به مستغرباً جهلهم سائلا اياهم :

أليس الحق أن العيش فان وان الحى غايته الممات

أليس كذلك أم ماذا بالله ؟ ؟

أم حكم أحد الاحلام الا حين علموا سنه أن :

الحق أبلج كالصباح لناظر لو أن قوماً حكموا الأحلاما

***

ومن أمثلة حكمته المغشوشة المعتملة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به لا يؤكل الليث الاوهو اشلاء

والبيت من قصيدة فى شكسبير . ومعناه ان جثة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها — أى انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى أتلفها ولم تتفتت هى حتى تفتتت . مهابة واجلالا !! ... وانه لما أكلها أكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الأسد لا يؤكل الا عضواً عضوا ...

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والأرض والسماء ، المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والرثاء ، المنعم عليهم بالذكر والايماء . تصفيق متواصل ... لا بل ضحك تتجاوب به الاصداء ، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر وأمير الشعراء

فياهذا . أن جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لأنها في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة أجساد كثيرة . وهى فى الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الاحياء من أكلها الى أدناها . ولو جاز أن يعظم أحد بأن يقال ان الموت يتهيب جسده لكان ذلك أليق بابطال الحروب اذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على أقرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبى يقول في أبي شجاع

من لاتشابهه الأحياء فى شيم أمسى تشابهه الأموات في الرمم

وهو من نعلم محضاً الحروب وابن الكريهة وحاس الخيل كانوا يلقبونه الجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحجى فخره الوحيد يمدح بأنه ذوجسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى انه لامعنى لأن يقال ان البلى تهيب أن يتمشى فيه الا بعد تقسيمه لان تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل الا هو واشلاء لأن الشأن كذلك في كل مأكول فالنمر أيضاً لا يؤكل الا وهو اشلاء والدجاجة لاتؤكل الا وهى اشلاء بل حتى الأرز لا يؤكل الا وهو اشلاء ممضوغة وما من شيء يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جميع الآكلين .

وصاحبنا يرثي شاعراً فيخلط هذا الخلط فعافاه الله أى نوع من أنواع العظمة يفقهه ان كان لا يفقه العظمة التي يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟ ؟ وأين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء اذا صح فيه فانه يصح في كل حيوان ؟؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحكمة اليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمة ان كنت فهم ... ان عزرائيل في حلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل ... من توقاه اتقى نصف العلل
اتخذ سكناك في طاق الجواء ... بين شمس ونبات وهواء
خيمة فى البيد خير من قصور ... تبخل الشمس عليها بالزور

ونقول : ان كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب « احترس من النشالين » و « ان أردت النزول اطلب من الكساري توقيف القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستمد وحى الشعر ويرتجل البلاغة ؟؟

***

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا أبياتاً يجوز أن يكون معناها مطروقا شائعاً ويجوز أن يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته وكيف تعن للنظام المقلد فتبقى كما هى . ونختارها من معان ورد مثلها في شعر المتنبي الذى يقتفى شوقي أثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والاقدام قتال

ألف هذا الهواء أوقع في الأنـ ... ـفس ان الحمام مر المذاق

من أطاق التماس شئ غلابا ... واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت ايلام

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل تروق دفيناجودةالكفن

فهـذه أبيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع الدامغـة وآية الفطنة البالغة ، وهى قد كان يمكن أن تقع لشوقي من ذخيرة الأحاديث المشاعة فتسمعها منه كعادته في نقل هذه الأحاديث منظومة فاذاهى مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة . الحمام مر المذاق . القوى مغتصب . من هان سهل عليه الهوان . لا يزين الذليل حسن البزة) وهكذا عهدنا الأمثال العامة فاذا شئت أن تزن الحكمتين بميزان الصحة فكلاهما صحيح ولكن ليست الصحة الواقعية هى ما نطلب من النفس الماهمة والطبيعة المشرقة والسريرة العميقة وانما المصدر الذى تبجست منه والشخصية التى طبعتها بصورتها والقالب الذى خرجت من لدنه والحجة التى صيرتها مقنعة شافية هى بغيتنا من نجوى الالهام وهى التى يرتوى منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبى « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ثم يتمم المعنى لان هذه الشطرة التى لا تزيد البيت صحة تزيده حياة وتنبئنا وحدها بأن في البيت حقيقة أقرب الينا وحجة ألصق بنا وثمرة أجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التى تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بأنها « ألف هذا الهواء » فهل ترى أصدق من هذا التعبير ؟؟ أليس المتنبى قد لمس به سر كل تركيب في هذه الموجودات التى ليس كيانها الا عادة تألفها زمناً ثم تتبدلها ؟؟ ومثل ذلك يقال في بقية الأبيات

وصفوة القول ان الحكمة المبتذلة أيسر مايتعاطاه النظامون لأنها صوغ متاع مشاع على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية مساساً ولن يقاربوها ولا اختلاساً . لأنهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لووقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس في بعض أقوالهم فحالوها من قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلائها فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين ان أرقي ما يرتقون اليه ان يأتوا بكلمة مقبولة في شؤن المعيشة وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية فأما الأولى فبنت

المران والمكابدة تقرأ آلافا من امثالها في كتب اللياقة ونصائح «اياك وحذار وعليك» وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمرة التفوق في شمائلها المقدسة وضبائرها السرمدية . كتابها صفحات الاكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والاديان وتنبثق روح الرشد والبيان . الاولى لون من ألوان البيئة المكتسبة والثانية قبس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لاشك فى غلبة الصناعة عليه كالحريرى على ماأذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا غير ان الشباك مختلفات

ولكنها فلتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقي بيت سوقي فظن انه سقط على كنز وطار به كأنه لا يصدق انه له أوكأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو

وانما الامم الاخلاق مابقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال

وانما الأمم الاخلاق مابقيت فان تولت مضوا فى أثرها قدما

ثم كرره أيضا فى قوله

وليس بعامر بنيان قوم اذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول

ملك عل الاخلاق كان بناؤه من نحت أولكم ومن صوانه

وكرره في نشيده وفي قصائد أخرى وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغى اليه من يخبرك بان الاخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الامم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ماهو متعارف فانما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الاولية

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس في بائيته بمثل

هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشي ولها ذنب
لاتغضب يوماً ان شتمت والناس اذا شتموا غضبوا

الى أن يقول

الناقة لا منقار لها والوزة ليس لها قتب

وكثير في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها انها سخيفة ظريفة . وهاهنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يستأثر بدولة الحكم والامثال

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لان البيت فى الحقيقة لا مدلول له . فلو انك حذفت كلمة الاخلاق وجعلت مكانها أصفاراً لما نقص من معناه شيء . لان هذه الكلمة لا تؤدى معنى محدوداً في الذهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطباع كالعناد والمراءاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحياناً من كلام الافرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطبائع البارزة والحيوية المتينة فأى المعنيين يقصد شوقي ؟ ؟ ان من الامم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهى مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العاجل أو البوار . والتاريخ غاص بسير هذه الامم . وان منها لما تحمد سجاياه ثم لا تلفيه من القوة على نصيب وافر فليقل لنا شوقي ما غناء بيته ان كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل

ولقد أضحكنا مرة أحد الثراثرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس وان في ذيوع بيت شوقي لدليلا على قيمته . فقلت له ياصاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردي

لا تقل أصلى وفصلى أبدا انما أصل الفتى ما قد حصل

فان كان لهـذا الشعر قيمة فهنيئاً لنا !! اننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئاً للانسانية فان الشمس لا تطلع الا على الحـكماء من أبنائها

.....

رثاء الاميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الاستار ، وبقبر النبى المختار . أقسم بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسينى والضريح الزينبي ومقام السيد البدوى ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ماان دفنوا بالأمس الانيرة . . . .

بهذا القسم ، أوعلى الاصح ، بهذه الاقسام استهل شوقي رثاءه للأميرة الحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهى منثور قوله :

حلفت بالمسترة والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء في الـ ـحظائر المنورة
مراقد السلالة الط يبة المطهـرة
ماأنزلوا الى الثرى بالأمس الانيرة

ولولا ان الامر أظهر من أن يحتاج الى قسم لأقسمت له بكل قبلة ومقام ، وبكل نبي وامام ، انه لنسيج وحده في فكاهة الرثاء ، ان كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد أرانا شوقي في مراثيه أجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكي من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزح ، ويقترن العبث بالمدح — أفرأيت أحداً قط يقسم لك على صدقه فى تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى التكذيب أو يتقى أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة غير شوقى ؟؟ واذا أطرد هذا فى جميع شعره فلم لا نحسن الظن ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد فى بابه ونتخذ له اسما فى أصول البلاغة مصطلحاً عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا أو اسما آخر مقبولا

لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده فى قصائده جميعاً وفى أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم أنها ليست بفلتة نظم أو هفوة خاطر ولكنها أصول يرعاها وأسوم يعيها ولا ينساها . والا فلوكان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته فى مطالع القصيدة فاذا كان يدعوه الى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو د والوفود المحضرة
وكل دمع كذب ولوعة مزورة

ألا ان الامر بين لمن ينصفون . . . فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم فأشعرنا الريب واتهم نفسه في ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وانه لم يبدر منه جهلا بفنون الرثاء وانما تمننا واختراعا لم يسبق اليه ونرجو ان لا يبارى فيه . . . فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للاشياء بغير أسمائها . فلا بد اذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجه

***

عجيب والله أمر هذا الرجل ! ! ما رأينا خطأ أشبه بالتعمد ولا توقراً أقرب الى المجانة من هذائه في رثائه . وما التبس الهزل بالاجلال قط التباسهما فى تأبينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف ومبرات الاميرة أشهر من أن يرتاب فيها أو يتنازع عليها ؟ ؟ وهبها لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر اذا لم يصدقها الناس بالايمان أو البراهين فى قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا ونسأله : ماباله يفترض ان الناس تبكي على الاميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضرورى هذا ليقول بعده ان الدموع الكاذبة لاتغنى عنها وأنه

لاينفع الميت سوى صالحـــة مدخرة

أيقول ذلك لان الدموع اذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت وأغنته عن الصالحة المدخرة ؟ ؟ فاذا كان التباكي كالبكاء فى هذا المعني فلم هذا السخف الذى يغض من المبكية والباكين وليس له من جدوى ؟؟

***

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا اننا نريد أن يلمس ضعف تمييز شوقى عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفاً لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا اننا سمعنا بيتين منها يرددان فى معرض الاستحسان فأحببنا أن نمسح الرغوعن محضهما لمن عساه ان يكون عل رأس المستحسنين لهما . فالبيت الاول وهو

فاطم من يولد يمت المهد جسر المقبرة

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين اليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيا الى غيرها فانما الدنيا لهم معـبر

وفصله المعرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول وثان ، وفقد المرء أن يعبر الجسر

وهو أوضح وأوجز فى قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة المنية واعلم انما الشيب للمنية جسر

فالذى صنعه شوقى هو أنه سرقه وشوهه كعادته لانه جعل المرء يخرج من المهد الى المقبرة ومانظن الناس يموتون كلهم أطفالا ! ! والصحيح ان المهد أول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته

والبيت الثاني أوهو بيت القصيد فى رأيهم قوله :

يلفظها حنظلة كانت بفيه سكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا أن يمتدح كل بيت فى القصيدة خلا هـذا

البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الاذواق وانتكاسها . فقد دل به شوقى على سقم تعبيره واراد أن يقول ان المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لانه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو أنه قال

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تأفف الانسان من الحياة حتى اذا أدركه الموت حلا مذاقها لديه وكره أن يلفظها كأنها « السكرة » !! ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشي على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوساً ...

ومن ترهات شوقى التي يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكل نفس في غد ميتة فنشرة

فالنفوس لا تموت فى غد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى أمس وأول من أمس وقبل ذلك بآلاف السنين وهى تموت اليوم بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى أن يقول : ان كل نفس تموت منشرة غداً — فخانه الاداء وخذلته العبارة وهى لو استقامت له لما جاء بطائل

وأما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقى فلا نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحصباء ، والشعر اذا تساوي فيه النقد والاغضاء نخير منه الصحائف البيضاء

ما هذا يا أبا عمرو ؟؟

مصطفى افندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحيانا وكثيرا مايخطئون السداد بتريثهم وطول اناتهم. وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أوجله اذ يدعى الدعاوي العريضة على الأمة وعلى من لايستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينفق الحافه عند من ليس يكرثهم ان يخدعوا به . بيد ان الاعتساف اذا كان رائده الخرق فى الرأى وشيك ان يوقع صاحبه فى الزلل احدى المرار فيضيع عليه مالو علم انه مضيعه لفداه بكل مافى دماغه من هوس ومافي لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعى فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه وان قدميه أساس مقاداً من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة

أصدرنا الجزء الاول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقى وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه الرافعى لانه لا يبالى اذا سقط النشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقى جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب من الكنانة والذخيرة فلم يدع فى طبعة نشيده الثانية وجهاً من أوجه النقد التي أتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته ان القذيفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين . ونقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبه الى صنيعه ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على غير سياجنا ؟؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه أذن لنفسه بغاية الافراط

ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هـذا ياأبا درويش أو ياأباالسامى كما تكنى نفسك أوياأباعمرو كما تقول لاجنـة الأغانى فى خطابك فان صاحب المساكين حرى أن لايغتصب بالسيف كما صنعت وفي رائعة النهار

قلنا فى نقد نشيد شوقى ان النشيد القومى يجب « أن لايكون وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب »

فرجع صاحبنا أبو عمرو الى نشـيده فحور منه ما اسـتطاع بضمير المتـكلم فقـال :

الى العلا فى كل جيل وزمن فان يمت مجدنا كلا ولن

وقد كان هذا البيت فى الطبعة الاولى :

الى العلا في كل عصر وزمن فان يمت مجد مصر لا ولن

ولما ان طوي هذا الضمير وونق من موارته ونفض عن يديه ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئاً وصار يؤنب شوقى لقوله :

على الاخلاق خطو الملك وابنوا الخ الخ

ويسأله : « وممن هـذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسـه أم من شوقى للشعب ؟؟ ص ٧٦ » كما سألناه من قبل : « فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة !! » وكما أخذنا عليه « انه استوطأ مطية الفلسفة والمواعظ »

وأنـكرنا من نشيد شوقى انه « قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا فنظم لنا نشيداً لا نتخطى به فى جميع العصور أن يتهيأ مكاننا وأن لا نبرح نشرع في التمهيد ونأخذ في الاسـتعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الاركان »

فجاء أبو عمـر البيغاء فقال : « واذا قيل اليوم لبني مصر هيا مهدوا الملك ومكانـكم تهيا فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد ألف سنة وما شاء الله والى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله في تمهيد ؟؟ » ص ٧٨

وعقبنا على قول شوقى عن الشمس « ألم تك تاج او لـكم مليا ؟ ؟ » بأن

الشمس « لم تكن تاج الفراعنة وانما كانت معبوداً لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها »

فعلمت الببغاء أيضاً « ان زعم شوقي ان هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وانما كانوا ينتسبون اليها ويعبدونها ؟؟ » ص ٧٩

فلله ما أعلم الببغاوات بالتاريخ اذا لقنته !!

وعبنا على شوقي تخفيف الهمزات وانه صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » تهيا و « شيئاً » شيا

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول . « وهذا التسهيل في همزة سيلت لم يفهمه الاالقليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الاساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢

فمذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الاساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

ورويناأن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول عهدهم عزاً و « نخراً » الخ الخ

لان التنوين لا بد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت » قالوا « واذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « نخراً » ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟؟ » ثم قالنا : » ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقدولكننا نعذر المنشد »

فروى هو كذلك عن الادباء والملحنين انهم « تنادروا بقوله نخراً وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا انها مما لا لايذوقه أحد الشعراء من طعم كلامه » ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه »

أتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟ ؟

واستضعفناهذه المقطوعة

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الامانا

ونحن بنو السنا العالى نمانا أوائل علموا الامم الرقيا

لان الناظم ساقها مساقاً ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس » فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجباً : « كيف غفل شوقى عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣

فاسأله بالله ثم اسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !!

ونقانا عن بعض أعضاء اللجنة انه لما تليت هذه المقطوعة :

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

أليس لكم بوادي النيل عدن الخ الخ

قال « ان البيت الثاني منبتر وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والكوثر »

فترك هو القائل والراوى وزوى وجهه عنهما وصاح وحده : « كلام مقطوع عما قبله » وسأل من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟؟ » ص ٨٠

ونقانا عن آخر نقده لهذا البيت

جعانا مصر ملة ذى الجلال وألفنا الصليب على الهلال

ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد سديد فاننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ »

فوضع أصابعه في أذنيه ـ أو لم يضعهما ـ وأصر وولى واستكبر استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا « زعم انه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقاً قلنا له فان القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيلين وكل هذه الاديان ملة ذي الجلال » ص ٨٤

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها ان أحداً تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة انها طبعت فى نوفمبر

سنة ١٩٢٠ ونسى لغفلة ذهنه انه ضمنها في صفحة ٦٧ كتاباً للاستاذ منصور افندى عوض مؤرخاً في ١١ ديسمبر ....

فهذا الخلق البغيض ونظائر من جرثومته هى التى تملأ نفوسنا تقززاً وعزوفاً من أدب الجيل الماضى وأدبائه ومن صناعة ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لأحقر الصناعات من حرم يرعى ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عندحده — أرجحهم منها سهماً أجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وأرفعهم فيها اسما أطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعاً نقيضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولاحقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ، وما على المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ، وانما البأس كل البأس عليه من المروءة والحياء

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم فى جلسة لجنة الاغانى فقيدناها لهم وأبينا لأنفسنا أن ندخلها في كلامنا مع انها أهون وجوه النقد التى أخذناها على النشيد ومع اننا تحدثنا بها لأصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل انتسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لايستحى انيسم نفسه على غلاف رسالته « بنابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها » يعمد الى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتمامه فينتحله جملة ولا يفات منه كبيرة ولاصغيرة حتي تسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالأصنام (١) ثم لايرى ان عليه بعد ذلك ان يوحى بفرد كلمة اليه ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا في مصر كان هو يكتب رسالته فى أقاصي الصين

---

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد أكثرهم أن يقروا أصنام الطبقة التى هم دونها ليكونوا بذلك أصناماً للطبقة التى هى دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم قد تغلغل باطله ونزغت شياطينه وانفرعت رذائله فاذا ذهبت تصلح منه التوى عليك »

أوأطراف السويد . ولا ندري وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة ؟؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه فى وجه من أوجه النقد لم نذكره وظن انه فاتنا أبلغ في الفند والسخف فنعى على نشيد شوقى خلوه من لفظي الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فتى رأى هذا الأعمه أمة تتغني بانها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه في مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه

ايه ياخفافيش الادب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لاهوادة بعداليوم . السوط في اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم فانكم بهذه المساوئ تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسبها الادب والحقيقة ؟

عباس محمود العقاد

صنم الاعيب

— ٢ —

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرضت اثنين : أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يأبون الا أن يعدوا شكري من دعاة الجديد والا أن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الأذى عن المذهب الجديد وننفى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا أمرهم ولانحن نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعاملون من أهل البصر والاتزان وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم لصلاح الأدب ونفض غبار الماضي عنه . ولهم لالسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على أكتافهم رؤسا وكأنما حملوا معدة أخرى لاعقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر. وهم يطالبوننا أن لانشيم الخير من أحد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا في محظور وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه ! ! فياويحنا لقد أسخطنا والله هذه المعدات الضاغبة وهجنا ثعالبها اللاحسة بنقدنا شكري الذى « وضع أهم أحجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيته وشهرته » ! ! كما يقولون . ولكن لاضير علينا من غضبهم ولاداعى لهذا الغضب فانا لا ننكر ان شكرى « ضحى بشخصيته » !

مكسين هذا الصنم !! لايعرف لبكمه ماذا يقول . ويتطوع المشفقون عليه للدفاع عنه فيجىء دفاعهم أقتل له من نقدنا . وينقمون منا انا جعلناه صنم الاعيب

وهم يسخرون منه ويتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقدكنا وكان شكرى . نخاص له النصح ونمحضه الرأى والسداد ونشجعه ونغتبط بمانراه من تعامله من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة في التحرر ونجرى مع الامل فيه فهل كان علينا أن نظل العمر طامعين فى غير مطمع ؟ ثم أهملناه على شيء من اليأس منه ثم تخشناله وعنفنا عليه فى الزجر فلم يغن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا راكبا رأسه حتى أحفاه ؟

ولقدكنا فى كل ما كتبناه عنه فى أول عهده بقرض الشعر لانغفل الى جانب التشجيع أن ننبهه الى عيوبه فقلنا عنه لماصدر الجزء الثانى من ديوانه « انه بطأ مفاخر الصنعة بقدميه » وانه « لا يتعهد كلامه بتهذيب أوتنقيح ولا يبالى أى ثوب ألبس معانيه » وعللنا يومئذ جموحه هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج القديم ولجاجتهم فى احتذاء المثال العتيق » أي أنه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل يقابلهما من الجهة الاخري غطيط المقلدين فى كهف الماضى وكان ذلك في ١٩١٣ فهل يرى أحد أن رأي اليوم لا يتفق مع رأى الأمس ان صح ان هناك رأيين ؟ كلا لقد أدينا الواجب له وللأدب قديما ولكنا اليوم نؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات أن رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها « انك تتهم شكرى بالجنون وأنت مثله والجنون في شعرك كثير » وما رمينا أحدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه أبدا الى هذا الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالته . على ان كوني مجنوناً لا يشفع لشكرى ولا لسواه في شيء جل أودق وما اتهمنا شكرى ولا تقولنا عليه شيئاً ولكنه هو الذي يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل في كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ »

« انى أسيء الظن بكل شيء سواء الحميد والذميم فلا غرو اذا رأيت فى الضياء ظلاماً ورأيت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الاوهام التي هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل. ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى أذنه

فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس في أذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس في اذنه اليسرى ومن العجيب أن هذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها (!!) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الوطواط في الظلام وتؤدى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من أجلها الجنون وجرعت كأسه المرة وبلغت أعماقه ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء الذكر والأمانى) اهـ

فهل رأيت أيها القارئ أننا فيما كتبناه عن شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ في شىء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخينا للقصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وأوردنا شاهداً على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من « الاعترافات » شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها في (حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المجاز في شىء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا الفرض والتأويل فقد سد بابه باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا في اعترافاته ص ١٠

« ويسمع المحب أنغاما وألحانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى أشكالا هندسية بديعة لا تسمع عنها فى كتب الهندسة ويرى أزهاراً خيالية لا يعرفها الباحثون في علم النبات » فهو يسمع ويرى ما يعلم ان لا وجود له وفي هذا تأييد لقوله فى وصف جنونه « ولا أعني جنون من لا يحس جنونه بل أعني جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه »

وشكري قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال فى ص ٢١ من الاعترافات : لقد كنت في صغري كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت ألتمس العجائز من النساء

أسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحى عقلى (وحتي صارت) عالما كبيراً ملؤه السحر والعفاريت وحتي صارت العفاريت حولى تحل حيث أكون وأذكر إنى رأيت مرة عفريتاً على سطح منزلنا وكان أسود الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف »

وليس ذلك في صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبلغ أشده كما كان فى فى حداثته . انظر قوله في ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفى بعض الاحايين أخاف خوفا شديداً أن يظهر لى ابليس . . فأتلفت كي أثق انه لم يظهر بعد وفى بعض الأحايين أعتقد وجود العفاريت والجن كما كنت أعتقد في أيام صغرى لقد سمعت البارحة القطط تعوى وتصرخ مثل عواء (المجانين) أو عواء الارواح الحائرة المعذبة (التى تتخذ الليل جلباباً ثم تفرغ فى ذلك العواء ما تقاسيه من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام لم اشك في أنها عفاريت من الجن وأصابتنى رعدة شديدة)

وتأمل تدقيقه فى وصف هذه الارواح الحائرة التى يذكرها وكيف أنه لايجد تمثيلا لمواء القطط — لاعوائها — الا بعواء العفاريت وكذلك كل صوت في سمعه قال فى ص ٢٦

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت فى ولدها » وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تأكل الدور قال في ص ٣٤ « أذكر انى رأيت مرة حريقاً هائلا فى جنح من الليل فهيج في قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتنهدم وتنهال وتتصاعد ألسنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجهنا نور يزيدها شحوباً وكنت أحس لفح تلك النار في خيالى وذهنى .... هذه هى المناظر التى (ألتذها) ومن الغريب انى يخيل لى ان هذه المناظر وما تبعثه من الاحساس تعين المرء على يفهم معانى الحياة ومعرفة سرها »

ثم تصور شكري واقعاً له ما يصفه هنا في اعترافاته ص ٧٢

« مارأيت اثنين يتساران الاظننت انهما يذكراني بسوء . . أوأحدا ينظر الى الاحسبته يحدث نفسه عني بسوء واني لأسيء ظني الآن بمن سيقرأ هذاالكتاب ومارأيت أحدا ينظر في ثيابي الاحسبته رأى فيها شيأ خفي عني وما رأيت أحدا ينظر في وجهي الاحسبته رأى فيه شيأ قذرا وما رأيت أحدا عابسا الا حسبته يعبس من أجلي بغضا أوحقدا ومارأيت أحدا باسما الاحسبته يسخر مني ويهزأ بي ومَا سمعت ضحكا لم أعرف سببه الاخجلت خجلا شديدا وحسبتني غرضا لذلك الضحك (ومن أجل ذلك صرت أعبس في وجه كل من يبسم في وجهي من الناس الامن عرفت سبب ابتسامه وأحيانا أعرف سبب ابتسامه فلا يمنعني ذلك من اساءة الظن به)

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والعفاريت كل مايملأ ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام . قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفزع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رأيت فى الحلم البارحة اني اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ماأدفع به التهمة فصرت أصيح امام القاضى وأقول أنابرىء والقاضى يهز رأسه ولا يصدقنى والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم رأيت بعد ذلك اني أساق للسجن والاعدام انه لحلم يفزع . . . اني لاذكر اني اتهمت (زورا وبهتانا) في أيام صغرى بسرقة علبة من الحلوى ولاأزال أذكرمانالني من الفزع أن تكون الحياة كلها تهم (كذا) باطلة . . على انه من (جنون) اليأس والفزع والجبن توقع مالم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع »

ولا ينبغى أن تفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائما الى ان هذه التهم مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فان لهذا الخوف منه أن يصدق القارىء مايرويه معنى ولا شك

وقال في ص ٨٥ « يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس منقسمون

بفطرتهم الى قسمين فهم اما مجرمون واما أبرياء وهـذا نظر فاسـد فان في نفس القـديس جرثومة الاجرام . . أي الناس لم تخطر بباله خواطر الاجرام ولم يفزع مما يتحرك في نفسه من حشرات الشر . . . لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التي تدفع المرء الى الشر فان الجريمة مثـل السراب اللامع والحياة كالصحراء القاتلة الحرارة والمرء فيها كالمصحر الظمآن يليح له سراب الشر (بضيائه) فيريد أن يروي ظمأه وينقع غلته . . انا اليوم برىء ولـكن مايدرينى ربما كنت في غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التي فى نفسى . . وكنت أشفق على المجرمين واملأ لهم قابى رحمة فانه لايحزنني في الحياة مثـل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رأيت فى الحلم مرة أنى أتيت جريمة القتـل ثم وقفت أمام جثة المقتول وقد أحسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمى وكنت أحس جريه كانه دبيب الحشرات وقد جمد الدم فى عروقي واسودت الدنيا فى عيني وكلما أردت أن أتنفس أحسست شـيأ يسـد مجري النفس وكنت أحس صوتاً كأنه صوت أعصابى تتقطع فيحكي صوت تقطع أوتار العود وكنت يخيـل لى كأن يداً من جليد قد وضعت على ظهرى هذه هى الاحلام التى تمكن الأديب أن يعـدم شخصه فى أشخاص غيره وان يلج الى أرواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما يرحم التعيس . »

وقال فى ص ٦٢ « ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم الاحب الاحياء أنفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة أن أنتحر فرارا من سلطان القضاء فأخذت سكينا وأدنيتها من صـدري ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغى ان أضرب نفسى الضربة القاضية فلم تمن على نفسى فقلت الليلة الآتية أفعل ذلك ولما أتت تلك الليلة أرجأت الانتحار الى ليلة أخرى حتى أفـكر فى طرق الانتحار وأختار منها واحدة »

وقد فـكر في الانتحار مرة أخرى لسبب هذا خبره قال في ص ٩٦

« اني لاأزال أذكر ذلك اليوم النحس الذي لطمني فيه شقى لم يكن يدرى

مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن وأخاه الحزم همسا في أذني قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو أقوى منك فلاتصيبه الا ببعض مايصيبك فخيرلك أن تتحمل اللطمة الأولى وان تنجو سليما فوقعت يدى الى جانبي وأحسست أن روحى قد سلبت أجل شئ فيها فنظرت الى مابين قدمي لارى ماسقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم أحسست كأن عظامي قداحترقت ولم يبق الا رمادها وخارت قوايى وعرتنى حيرة وشككت في الحياة فجعلت أعدو من الغيظ وقد اسودت الدنيا فى عيني وجعلت أنظر الى المارين وهم ينظرون الى فارميهم بلحاظ المقت والكره لاني كنت أحسبهم يسخرون بي ويعرفون ماحدث لى ويفهمون سر روحى التى أهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت أن أرمي نفسى فيه ولكنى هزأت بنفسى تلك النفس التى تفر من اللطام الى الحمام ثم ذهبت الى البيت . . . وخطرلى (أن أتأبط سكينا أومسدسا وان أنتقم من ذلك الشقى فأقتله) ولكن الحزم والجبن وهما سميراى ونصيحاى ألاحالى بالقضاء والمحاكم فجعلت أقرض اسناني من الغيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات (الجنون) اه

على انه تشجع مرة بعد هذه واراد ان يظهر انفته وعزة نفسه فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكهة بعقب هذه المرارات قال فى ص ٩٨

« فلما احتدم الجدال بيننا وخفت ان يبدا اللطام بدأته به فان المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت اريد ان يخر مغشيا عليه منها ولكنى خفت ان افقأ عينه او ان اصيب احد اعضائه بتلف دائم او ان تكون ضربتى هى القاضية فتعود بانظامة وبالعقاب الشديد كل هذه الخواطر جالت في ذهنى عند ماسددت يدى لألطمه ومن اجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا فمد الى يده باللطام ولكن يخيل لى انه لم يخش ماخشيت من العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بأنف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح »

***

وقلنا عن شكرى انه ابكم فكأننا اخترعنا شيأ وحسب البعض ممن يظنوننا نلقى القول على عواهنه ولا نبالى اين وقع من الحقيقة اننا نستطيل بلساننا عليه مبالغة في ايجاعه وتنقصه والزراية عليه ولهم العذر اذما ادراهم انه هو القائل فى ص ٣٩ من الاعترافات

« انى في خلوتى بنفسى أعد الكلام البليغ والحجج الراجحة والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء وحادثتهم لم أجد في كلامي هذه الآيات البينات. ثم اذا خلوت بنفسى بعد ذلك أقول كان ينبغى أن أقول لهم كذا وكذا فينطلق لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن أى مزية فى ان يكون المرء (عييا) فى المجالس فصيحا فى الخلوات ؟؟ وهذا سبب من اسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون حياتى هادئة مطمئنة »

وليس الأمر عنده من قبيل صمت المفكر او المحزون أو قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص قال في صفحة ٤٧ من الاعترافات : —

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت انظر الى جرأة أترابى من الغلمان (وحسن لهجتهم) واعجب بها واتمنى ان اكون مثلهم . اذكر ان ابى زارنى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن وكان لصاحب البيت ابن في عمرى فجاء الغلام وصافحنا وحيانا (بفصاحة وطلاقة ورشاقة) اعجب بها الحاضرون وصاروا ينظرون الى و يضحكون »

ولا نظن بنا الآن حاجة الى استقصاء « الجنون » في شعره بعد اقراره به وتقريره أنه جرع كأسه المرة وأنه وصل الى اعماقه وانه يحس بجنونه ويعرف اسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون انهم مجانين وفي الناس كذابون حتى على انفسهم ولكنا عاشرنا شكري اعواما طويلة وخالطناه وبلوناه ولا نراه بالغ في شىء مما وصف به نفسه بل لعله آثر السكوت عن أشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه وملابسيه . ولا يمكن ان يقال في الرد علينا

وفى تبرئة شكرى مما قرف به نفسه ان « الاعترافات » صاحبها رجل آخر اسمه م . ن وان شكرى ليس الاناشرا لهـا فان هذه الاعترافات ليست الا طائفة من المقالات لا يربطها شيء الا ضمير المتكلم وقد نشر شكرى أكثرها فى « الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على انها له ثم عاد فجمعها في كتاب طبعه في ١٩١٦ ويرى قارئ الاعترافات أبيات شعر كثيرة واردة فى أثنائها وفي الهامش أنها من شعر المؤلف وصاحب الابيات هو شكرى وربما ذكر اسم القصيدة التى هى منها وقد يعين الجزء من ديوانه الذى وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارئ على الركون الى هذه الاعترافات وتصديقها انه يجد مصداقها في شعره فكما انه قال في الاعترافات ان في نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال في شعره « فقد أغرم الانسان بالشر والاذى » وقال :

كل نفس فيها الى الخير والشر دواع طويلة الاغفاء

وقال معترفا انا اليوم برئ ولكنى ربما كنت في غد مجرما ومن شعره

ربما شب بين جنبيك للشر ضرام ما ان له من فناء
انت في اليوم واسع الجاه غض الـ ـخير لدن الرخاء رطب الرجاء
خالص الكف من دماء قتيل أبيض الطبع لم يشب برياء
ربما كنت في غد أشعث الطب ـع لئيم الخصال جم الشقاء
خاضب الكف من دماء عدو طائر الضغن ثائر الشحناء

وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل وأوردنا نبذاً من اعترافاته وفي شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة الغادرة » وهى قصة امرأة أرادت أن تسمه فسمها هو :

وهى قد أفرغت لى السم في كوبي وقامت تمر غير بعيد
ثم غافلتها وافرغت كوبى فوق ماء بكوبها منزور
ثم نلنا من الطعام بلاغا وشربنا برءا من التصريد

ثم جاء اليوم الجديد فنامت زوجى الزود نومة المقبور
فعـل السم فعله فى حشاها ودهاها من الردى بقيود

ومنها قصيدة عنوانها « ام اسبرطية قتلت ابنها » وهو فيها يبرر هذه الجناية لأنه فر من الحرب قال وقد نسى انه هو أيضا جبان حتى في مواطن « الاعلام »

أيها الخائن الجبان خشيت الـ موت والموت حادث مقدور
ان اما تعزي لهـا قتلت في قتلك العار لم يصبها معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبلة الزوجة الخائنة »

* قـد قبلتنى قبـلة مرة كأنها من حمة العقرب *
تنهش جاها لم يكن نهـزة لشاحـذ الأنياب والمخلب
لولا وميض الزأي يقتادنى يعيذنى من سفه المغضب (!!)
جلاتها بالسـيف أمحو به الـ ذنب بذنب رائع معجب

وتأمل فى هـذه الأبيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف انه يصف الجريمة بأنها رائعة معجبة . ومنها قصيدة العقاب بالقتل وفيها يعذر المجرم

أطيلوا حياة الجارمين فانهـا حياة اذا سـد المطامع عاقر
لقد أخلفتهم بلغة العيش برها زمانا وحاجات الحياة غوادر
فبئس حياة المرء والفقر عاكف عليه وأسـباب الحياة جرائر
هنا لك انى للفقير لعـاذل وانى له ممـا يعانيـه عاذر

كأن كل من يجرم يكون باعثه الفقر والخصاصة ! وله عدا ذلك أبيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه

فلو كنت بين الناس ربا معززا ونادوك أنى فاتك النفس جارم
لألفيت غفرانا لديك ورحمـة فمـا يغفر الزلات الا العاظم

وقوله :

رحت أسعى كمصحر بان عنه الـ صحب فردا ذا وحشة واطراح
أو كذى الجرم حين طال به السجن يضـل الطريق عنـد السراح

وقوله :

كأن همـوم المـرء ذئب مراوغ فيا بؤس مقتول ويا بؤس من نجا

وفي اعترافاته انه يحلم بانه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك في شعره

يرى الناس ان النوم أم رحيمة ولـكن نوم الجارمين عقاب
يسـل على الحلم اسياف نقمة فاحلام نومي كالجحيم عذاب
وكم هدمن عزم صليب عذابها وشيب وراد الذنوب فشابوا

ومنها

وغيرني عما عهدت جرائري فليس الى الحال القديم اياب
فلا تحسبن الشر يمحى بتوبة وان غفر الجرم العظيم متاب
يواقع كل الناس بانفكر شرهم وقد عابني أني جرؤت وهابوا
وكم حدثت بالشر ذا الخير نفسه وذاك حديث ما عليه عقاب

وقد شبه فى اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياء وكذلك فعـل في هذه القصيدة

ظمئنا فخانا الشر فى العيش منهلا ولـكن ورد الجارمين سراب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم يرفيه مأثما

وان بقلبي من جفائك (جنة) فان رام يوما قتلـكم ما تأثما
فاسقى جنوني من دمائك جرعة وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تقصـيه وما بقى من شـك فى ان الرجل ممسوخ الطبيعة

هذا هو شكرى قد رسمنالـكم صورته بقلمه وهذه هى صفاته وميوله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شاذ غير مألوف في الفطر السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالغنا ؟ اللهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حاله شعر سليم ؟ كيف والطبع اعوج والذهن مقـلوب والعين تنظر الى الحياة من منظار معكوس يريها الأشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

ابرهيم عبد القادر المازنى